

2272
.7535
.311

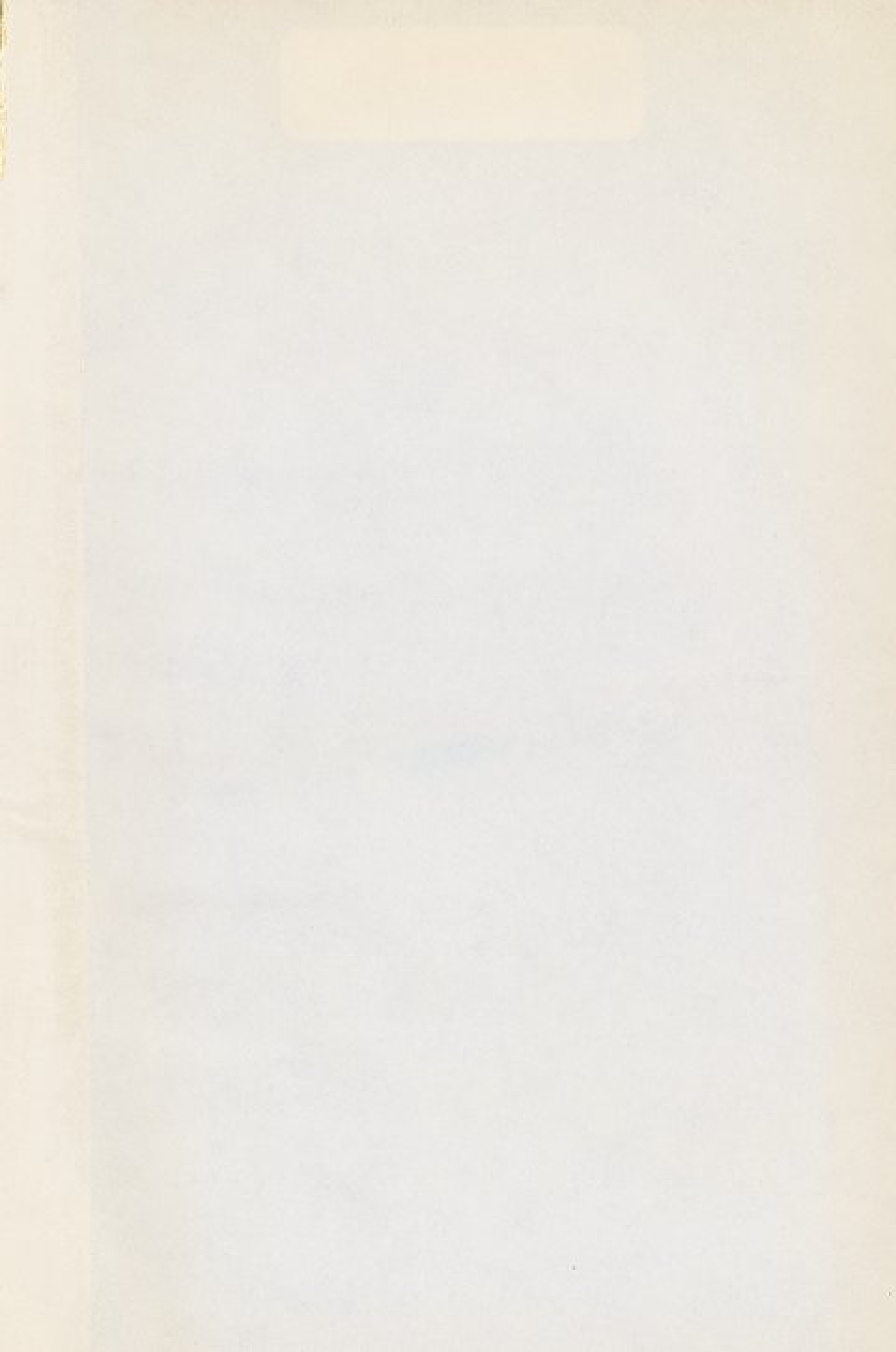
2272.7535.311

2272.7535.311
Qaddāh
Afrīqiyā al-Gharbīyah

DATE	ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
APR 4 1975			


Princeton University Library
32101 074488055

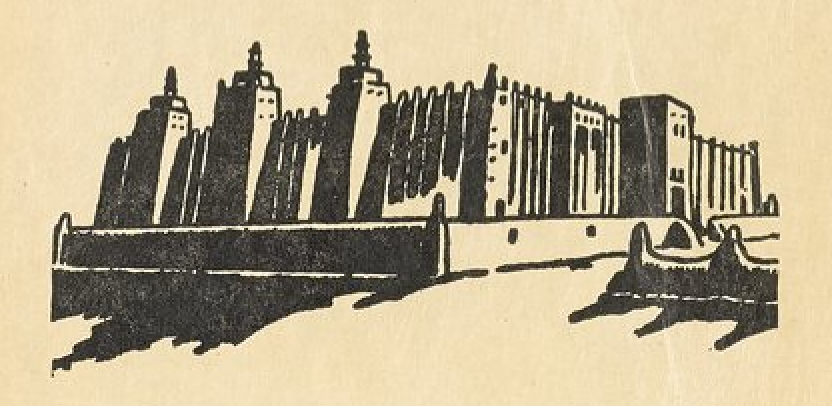


وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

أفريقيا الغربية في ظل الإسلام

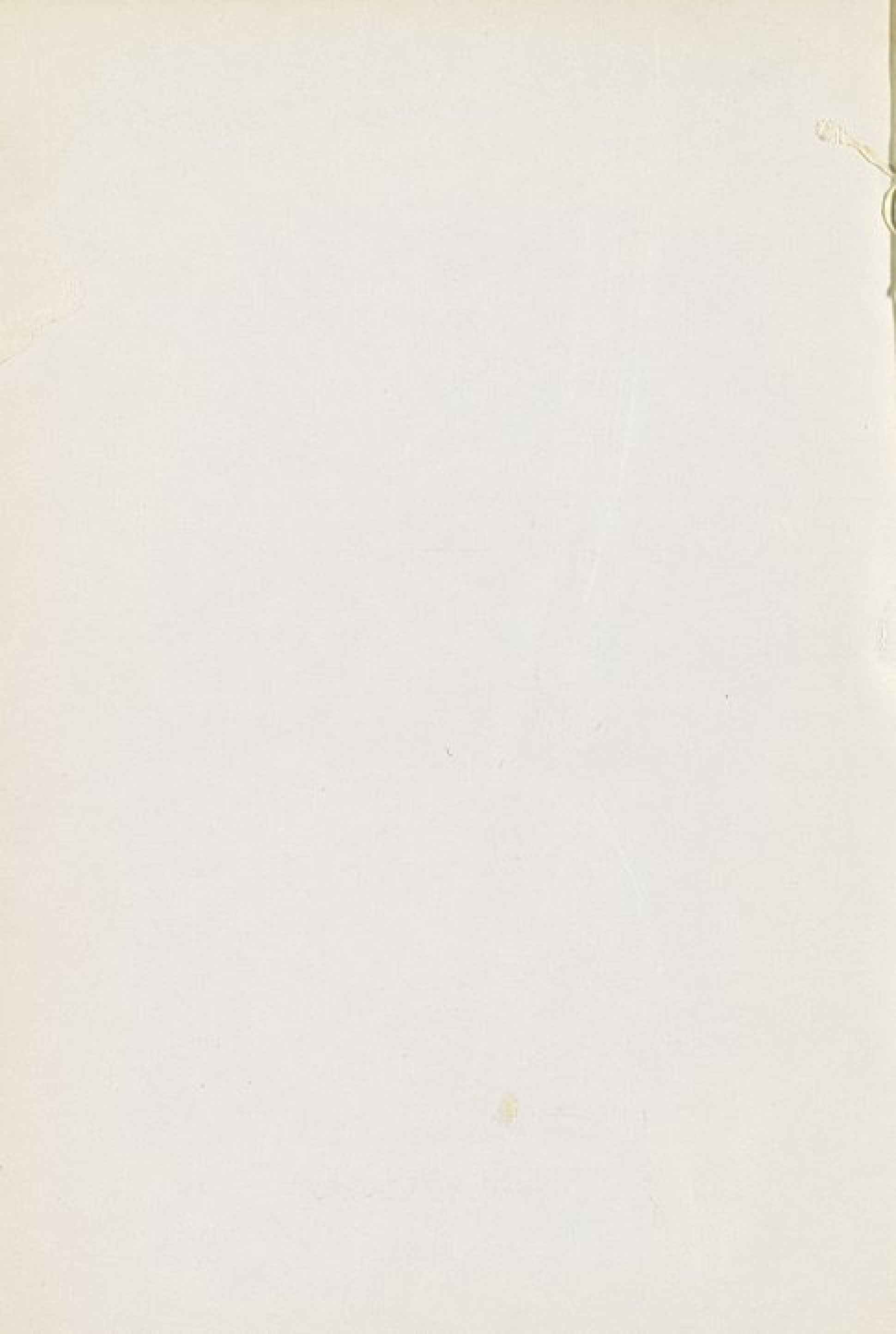
تأليف
نعيم قداح

مراجعة
عمر الحكيم



سلسلة الثقافة الشعبية
٦





افريقيا الغربية في ظل الاسلام



وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

Qaddāh, Na'īm

أفريقيا الغربية في ظل الإسلام

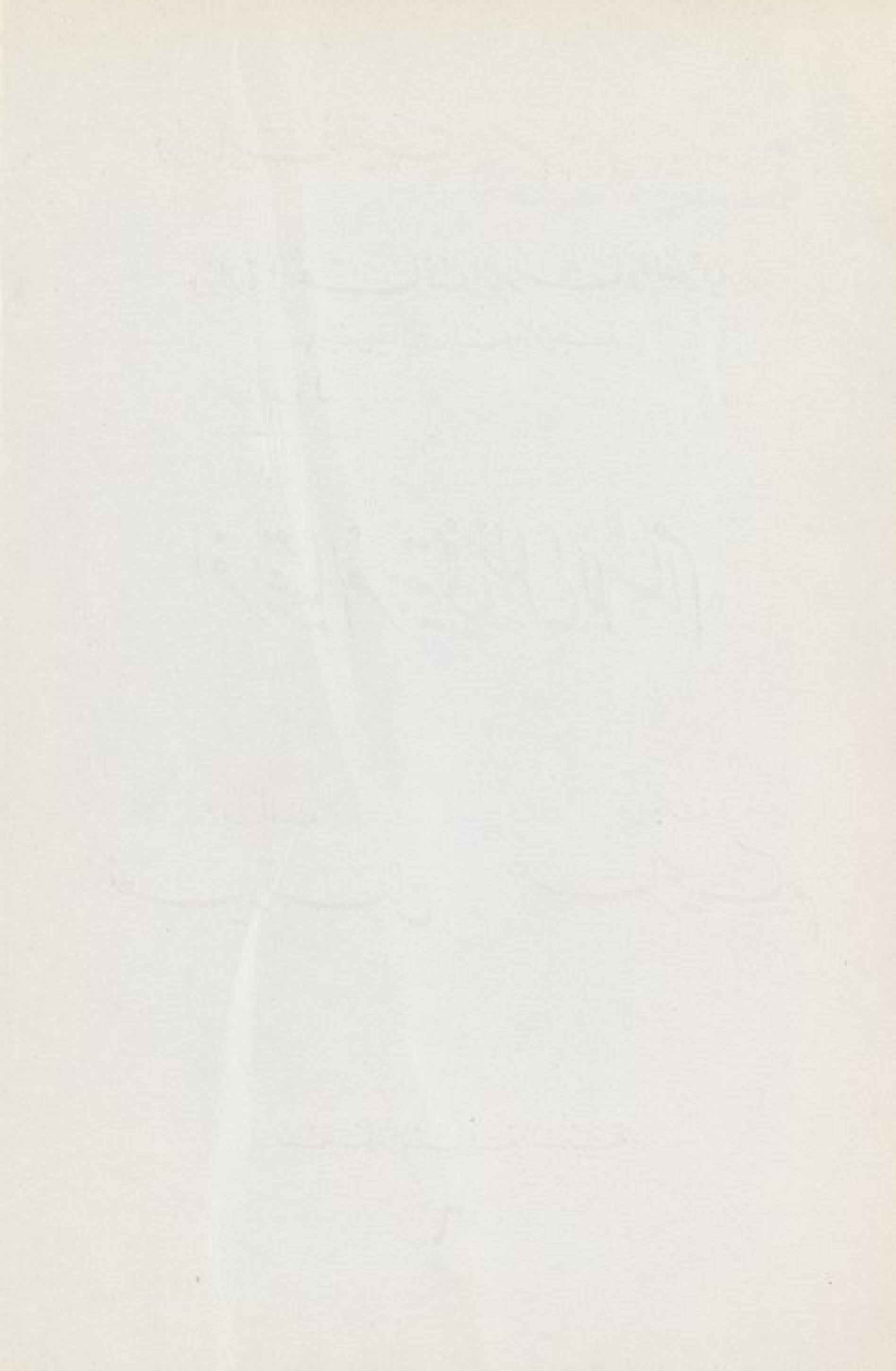
Afrīqiyā al-Gharbīyah

تأليف
نعيم قداح

مراجعة
عمر الحكيم

سلسلة الثقافة الشعبية
٦

-1960-

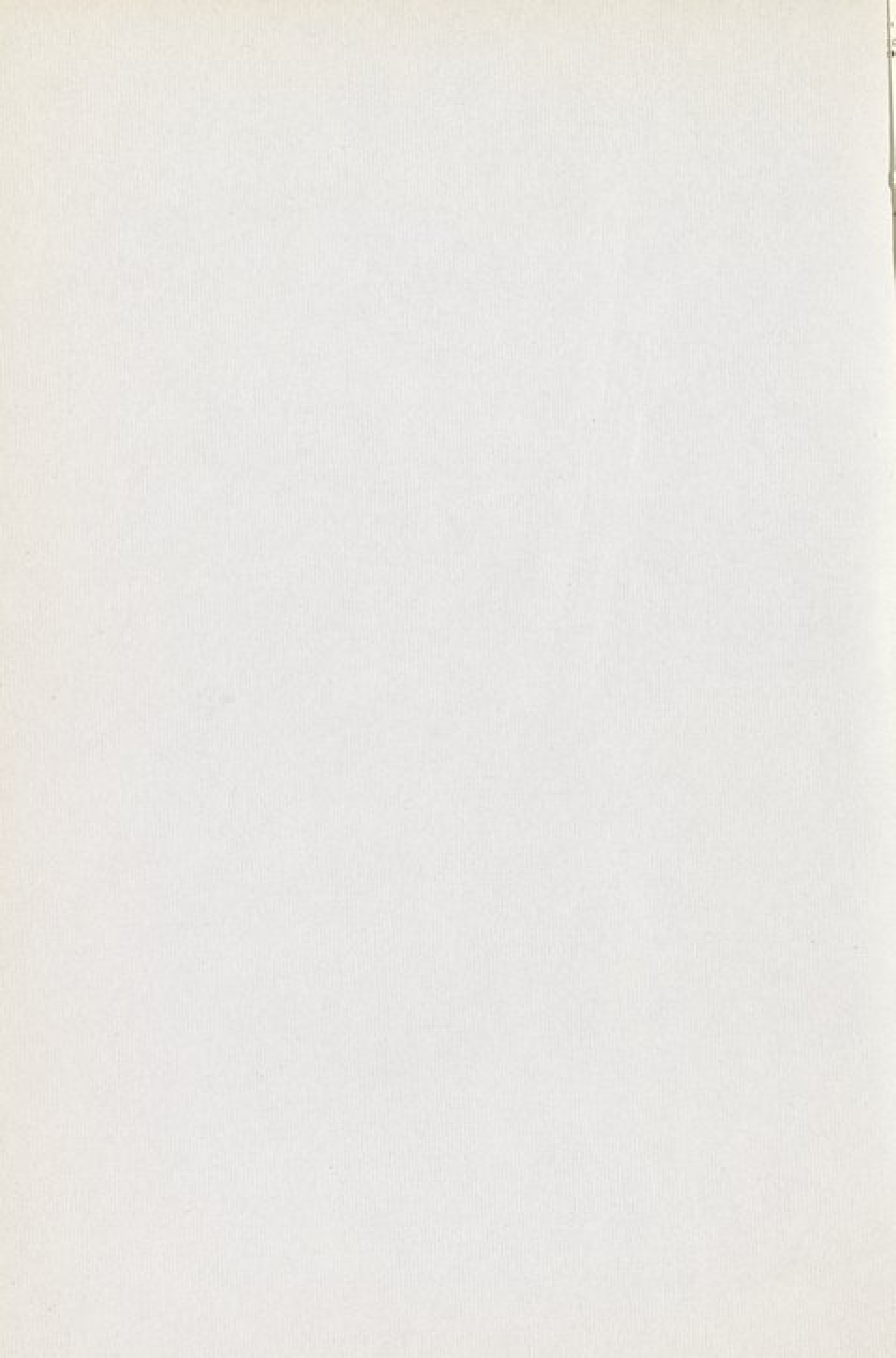


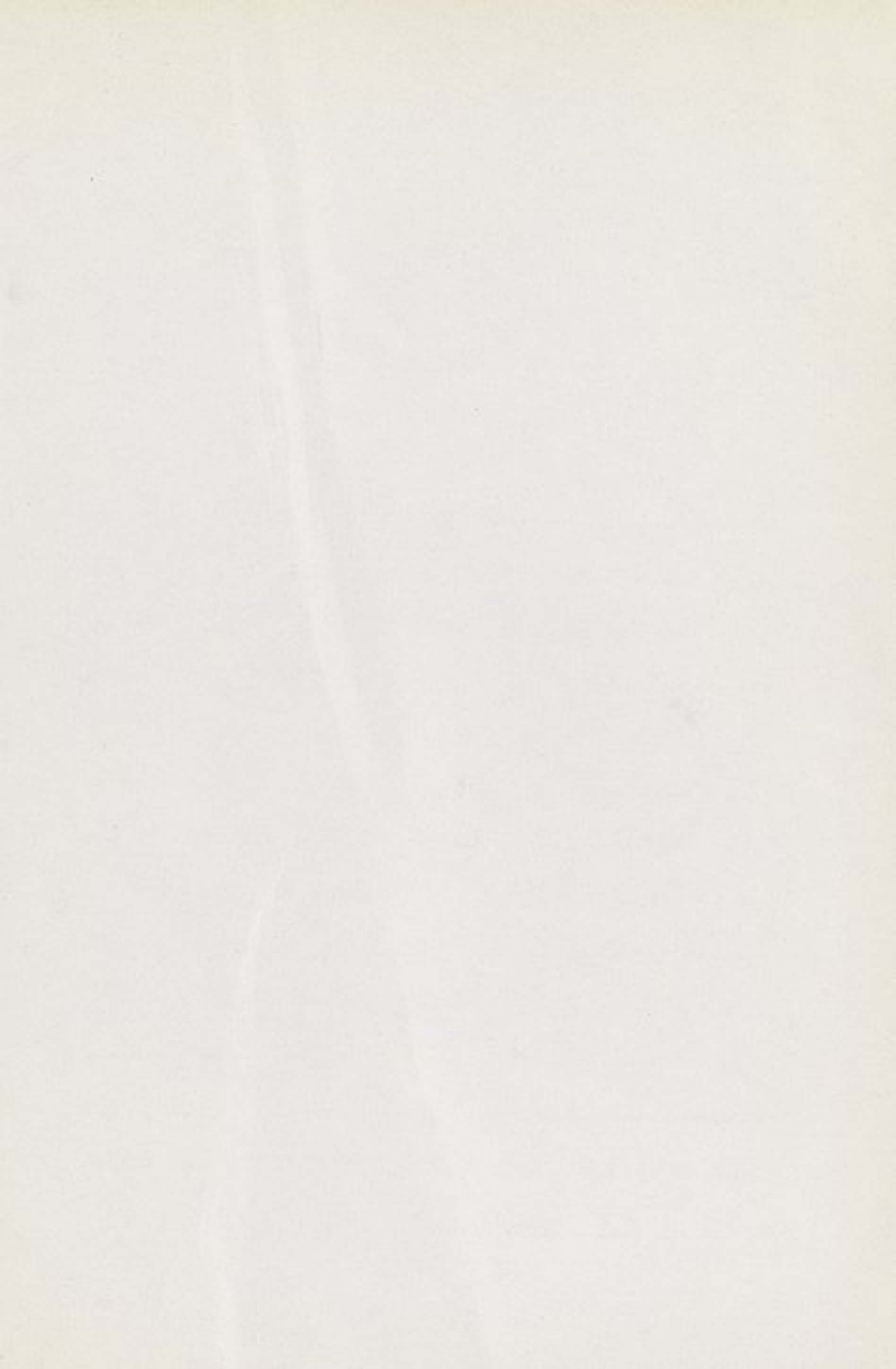
المحتويات

2272
.7535
.311

القسم الثالث :

الحضارة الافريقية في غرب افريقيا





المقدّمة

أتيح لي ، في عام ١٩٦٠ ، أن أعمل في افريقيا الغربية مدرساً للعربية في جمهورية غينيا . وقد لاحظت ، ابان اقامتي وتجوالي في تلك الربوع ، في كونا كري ودكار وباماكو وطومبو كتو ... الأثر الكبير الذي طبعت به الحضارة العربية الاسلامية شعوب تلك المنطقة التي دانت بالاسلام ، فسما شأنها وتميزت عن غيرها من الشعوب التي كانت منها والتي بقيت على وثنيتها ، فلم تفد من المدنية الاسلامية ، فظلت بدائية متأخرة .

أجل لقد رأيت في افريقيا الغربية الحضارة المزدهرة والفن العمراني ، وروح الاقبال على العلم ، وقرأت عن الدول العظمى التي سادت تلك الأصقاع خلال بضعة قرون من العصر الوسيط . وشاهدت الحياة الاجتماعية المتطورة والاخلاق المثالية وروح النضال الضارية في وجه الاستعمار . لقد كان كل ذلك نتيجة طبيعية لتغلغل الحضارة العربية الاسلامية التي حملها الى هناك

التجار العرب ، فتقبلها الافريقيون أحسن التقبل ، ثم ما لبثوا أن عملوا على نشرها عندما حملوا راية الدعوة للدين الجديد .

وكان الأثر المباشر الذي أحدثه الاسلام هناك متمثلاً في تلك الممالك الافريقية الاسلامية كمملكة مالي ومملكة غاو وغيرهما . وكانت هذه الممالك تنعم بحضارة عربية اسلامية افريقية ، خدمت التقدم وأوجدت العلم والثقافة .

وسيجد القارىء في هذا الكتاب ، لأول مرة ، لمحات من تاريخ الحضارة في افريقيا الغربية في ثوبها العربي الاسلامي . وقد نقبت ، من أجل ذلك ، عن المعلومات من مظانها الصحيحة ومصادرها الرصينة ؛ في المعهد الغيني للدراسات .

واني لآمل ، في هذا الكتاب ، أن اساهم بقسطها في تسليط الانارة على جانب هام من الحضارة العربية الافريقية ، في عصر تعود فيه افريقيا المتحررة الى احتلال مكانها في ركب الحضارة العالمية .

ولست أدعي الكمال في هذا العمل ، فالموضوع واسع جداً ، اكبر من ان يستوعبه هذا الكتاب ، لذا سوف اتبعه بجزء آخر يتممه ؛ وحسبي أنني أحاول أن أضع الصوى في درب البحث ، والله تعالى أسأل أن يلهمني طريق الصواب والتوفيق .

كونا كري ـ آب عام ١٩٦٠ المؤلف

تمهيد

مشكلة مصادر البحث في تاريخ افريقيا الغربية

يعتبر النصف الثاني من القرن العشرين عصر الحرية والاستقلال لمعظم شعوب افريقيا ، فلقد نبتت الزهرة الافريقية البيضاء كما يقول أحد المؤلفين . وقد بذل المستعمرون جهوداً شاقة خلال حقبة طويلة في سبيل اسدال الستائر الكثيفة التي تحول بين التاريخ الوطني للشعوب الافريقية وبين العالم الخارجي ، بل أنهم طلعوا على العالم بمؤلفات عن افريقيا كتبوها بوحي المصالح الاستعمارية .

وقد استغل الأوربيون ندرة المصادر التي تبحث في تاريخ افريقيا القديم ، ليصوروه متخلفاً عن ركب الحضارة ، لا يتمتع بمزايا الشعوب المتحضرة ، ليبرهنوا للعالم أنهم انما جاؤوا لانقاذ الافريقيين من التردي والانحطاط ، وليخفوا صفحات رائعة من تأثير الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا الغربية على وجه الخصوص .

وقد زعم بعض الأوربيين المستعمرين أن المجتمعات الافريقية كانت على شيء من الرقي ، عندما اتصلت بالحضارة العربية الاسلامية عن طريق الدين الاسلامي ، ويزعمون أن التقهقر قد بدأ من ذلك الوقت الى أن أتى الاستعمار مخلصاً .

لقد كانت افريقيا ، أرض الصحاري والغابات ، مسكونة بشعوب وصفها الأوربيون بأنها غارقة في وحشية غريبة ، ولكن الاتصالات التي قام بها الرحالة العرب والملاحون الأوربيون في القرون الوسطى تكشف عن وجود ممالك منظمة ، مما يثبت أن التأثير الحضاري العربي قد قدم للشعوب الافريقية عطاءات انسانية مجدية ، في حين كان حظ القارة من الأوربيين سيئاً اذ كان همهم الوحيد استثمار البلاد وافقارها من السكان.

وكانت الكتب التي ألفها الأوربيون تهدف الى اغراء عدد كبير من الأفاقين لارتياد افريقيا بغية السلب والنهب .

وقد نفخت حضارة الاسلام في الحضارات القديمة روحاً جديدة وانطلاقة بناءة ، فكانت الحركة النضالية ضد الاستعمار تقوم على عاتق جماعة من المستنيرين الذين وجدوا في الاسلام عاملاً يضم شمل افريقيا في دولة واحدة قوية تقاوم الغاصب المحتل . ومن هذا نشأ الاتجاه الاستعماري لتسليط الأضواء على التاريخ الوثني ، ولطمس الحقائق العلمية المتعلقة بالثقافة العربية الاسلامية ، يريدون من ذلك أن يوهموا الافريقيين أن الاسلام لا يصلح لافريقيا .

ومصادر البحث عن تاريخ افريقيا الغربية القديم، مفقودة تقريباً،

وكل ما ظهر من مؤلفات الأوربيين دراسات مقارنة ، لاتستطيع أن تكشف عن فترات طويلة مغرقة في القدم لاتزال غامضة في كثير من جوانبها ، ويعود الغموض ، هنا ، الى فقدان الوثائق والآثار ، الأدلة الضرورية للبحث العلمي .

أما تاريخ افريقيا الغربية في العصر الوسيط ، الذي نحن بصدده ، فقد حفل ببعض الوثائق الهامة . وهي أغنى حتماً من مصادر التاريخ القديم ، على أنها تعتمد على الروايات الشفوية المتناقلة بين جماعة من القصاصين والمحدثين (Griots) الذين يتداولونها منذ زمن بعيد من جيل الى آخر ، مشوبة بالأساطير . ومؤلفو هذه المصادر هم تارة من الرحالة العرب الذين زاروا تلك المنطقة من افريقيا ، وهم تارة أخرى من الافريقيين المسلمين .

وما ذكره المؤلفون الافريقيون يقدم للتاريخ نقاطاً هامة في البحث ، لاينبغي اهمالها ، وهذه الكتب كلها مؤلفة باللغة العربية ، منها : (التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس) لقاضي طومبوكتو محمود بن عمر كعت (١٤٦٣ — ١٥٤٨) ومنها : (تاريخ السودان) لعبد الرحمن بن عبد الله السعدي (١٥٩٥ - ١٦٥٦) امام جامع طومبوكتو ومؤرخها . وكتابه مطبوع ومترجم الى الفرنسية.

ومنها أيضا (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) لأحمد بابا التومبوكتي (١٥٥٦ - ١٦٢٧) وهو في تراجم مدينة طومبوكتو من طبقة المالكية .

وقد استولى الفرنسيون أثناء احتلالهم للسودان في أواخر القرن التاسع عشر على كثير من المخطوطات والكتب، نقلوا قسماً منها الى فرنسا، بينما بقي في قسم الوثائق بجامعة (داكار) نحو اربعمائة مخطوط باللغة العربية تنتظر الباحثين ، وقد عمد الفرنسيون الى ترجمة بعضها .

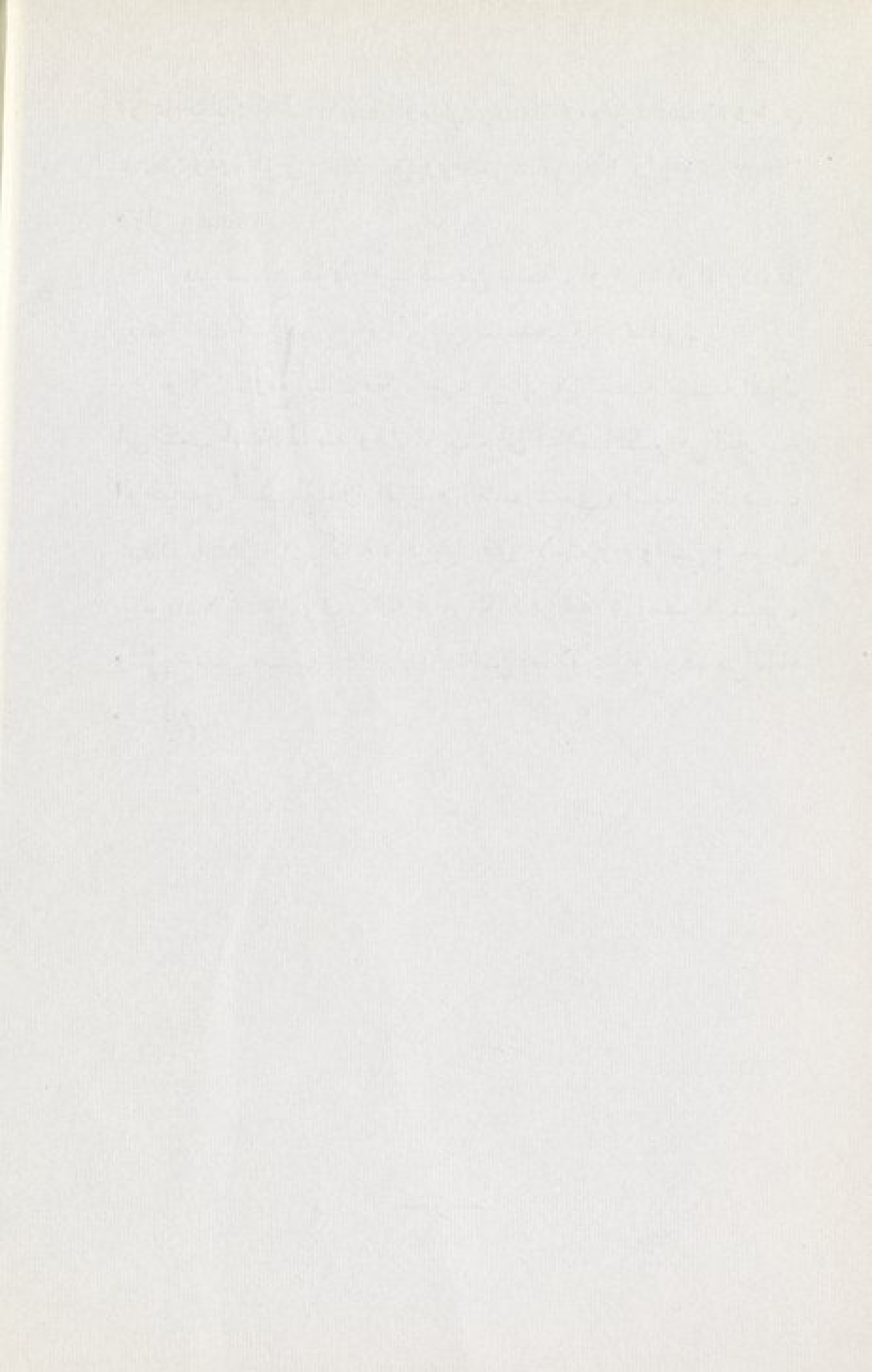
أما المؤرخون والجغرافيون العرب الذين توالوا على ذكر تاريخ تلك البقعة من افريقيا فهم : ابن حوقل في القرن العاشر وقد وصل الى موريتانيا (شنقيط) . والبكري في القرن الحادي عشر ،وقد زار البكري المنطقة ووصل الى نهر السنغال . والادريسي في القرن الثاني عشر ، وياقوت في القرن الثالث عشر ، وابن خلدون والعمري وابن بطوطة في القرن الرابع عشر (زار ابن بطوطة المنطقة ووصل الى عاصمة مالي على النيجر) ثم جاء ليون الافريقي في القرن السادس عشر (وزار بعض المدن على النيجر) . وقد استقى المؤرخون العرب الذين لم يقدموا الى تلك البقعة ، معلوماتهم من التجار الذين كانوا يذهبون الى هناك أو من الحجاج الافريقيين الذين يمرون من شمال افريقيا ومن القاهرة . أمدنا الذين زاروا المنطقة بكثير من الأخبار القيمة .

وقد عمد بعض الباحثين الفرنسيين الى دراسة تاريخ الاسلام في افريقيا الغربية ، واستقوا معلوماتهم من المصادر الافريقية والعربية، ولم تخل أبحاثهم من بعض الدسائس ، الا انهم كانوا ، بشكل عام ، أقرب الى الموضوعية من غيرهم من المؤلفين . وتلمع في هذا المقام

الأسماء التالية: كانال Canale وموني Mauny ومونو Monaud ومارتي Marty ودولافوس Delafosse وبومان Baumann وايرفوي Urvoy وبالمر Palmer. (British)

وقد استطاع هؤلاء، بما لهم من سلطة، أو قيادة أو ادارة، أن يضعوا تحت تصرفهم كل الوثائق التي تساعدهم في أعمالهم.

والان، ومع انبثاق فجر الحرية في افريقيا تتجه نيـــة الدول التي تمتعت باستقلالها منذ وقت قريب، الى اعادة النظـر في التاريـخ الوطني على أيدي مؤلفين افريقيين امثال السنغالي « الشيخ أنتا ديوب Anta Diop » في كتابه « افريقيا قبل الاستعمار » والغيني « جبريل نيان Djibril Nian» في كتابه « الممالك الافريقية في العصر الوسيط » والمؤرخ مامبي سيديبه Mambi Sidibé من باماكو بمالي وغيرهم من العلماء والمؤلفين.



القسم الأول

جغرافية افريقيا الغربية [1]

١ — الموقع والحدود والمساحة والسكان

يقع الجزء المسمى بافريقيا الغربية الى الجنوب من افريقياالعربية ويحدها شرقاً بحيرة تشاد وغرباً المحيط الاطلسي جنوباً خليج غينيا .

وهي تتألف مما يسمى افريقيا الغربية الفرنسية A.O.F. سابقاً وافريقيا الانكليزية وغينيا البرتغالية وجمهورية ليبريا المستقلة .

وتشمل افريقيا الفرنسية الأقطار التالية موريتانيا (أوشنقيط) ، مالي، السنغال ، غينيا ، ساحل العاج ، الفولتا العليا ، التوكو (المستعمرة الألمانية السابقة) النيجر ، الداهومي .

---

(١) هذا البحث مستقى من المصادر التالية : Diop, Canale, Mollard أنظر ثبت المصادر في نهاية الكتاب . وانظر في ذلك الجزء الحادي عشر من الجغرافيا العامة للمؤلف : A. Bernard

أما افريقيا الانكليزية فهي كامبيا ، السيراليون ، غانا ، نيجيريا .
وتبلغ مساحة افريقيا الغربية بمجموعها نحو (٧) ملايين كيلومتر مربع ويربو عدد سكانها على (٦٠) مليون نسمة [١] .

٢ — المناطق الطبيعية

تتشكل افريقيا الغربية من هضبة قديمة عملت العوامل الطبيعية في تغيير قشرتها الخارجية ، ففيها الصحاري الواسعة والأودية الخصبة ، والسهول المنبتة وتضاريسها تمتد من تشاد الى الأطلسي وهي تنقسم من الشمال الى الجنوب الى الأقسام التالية :

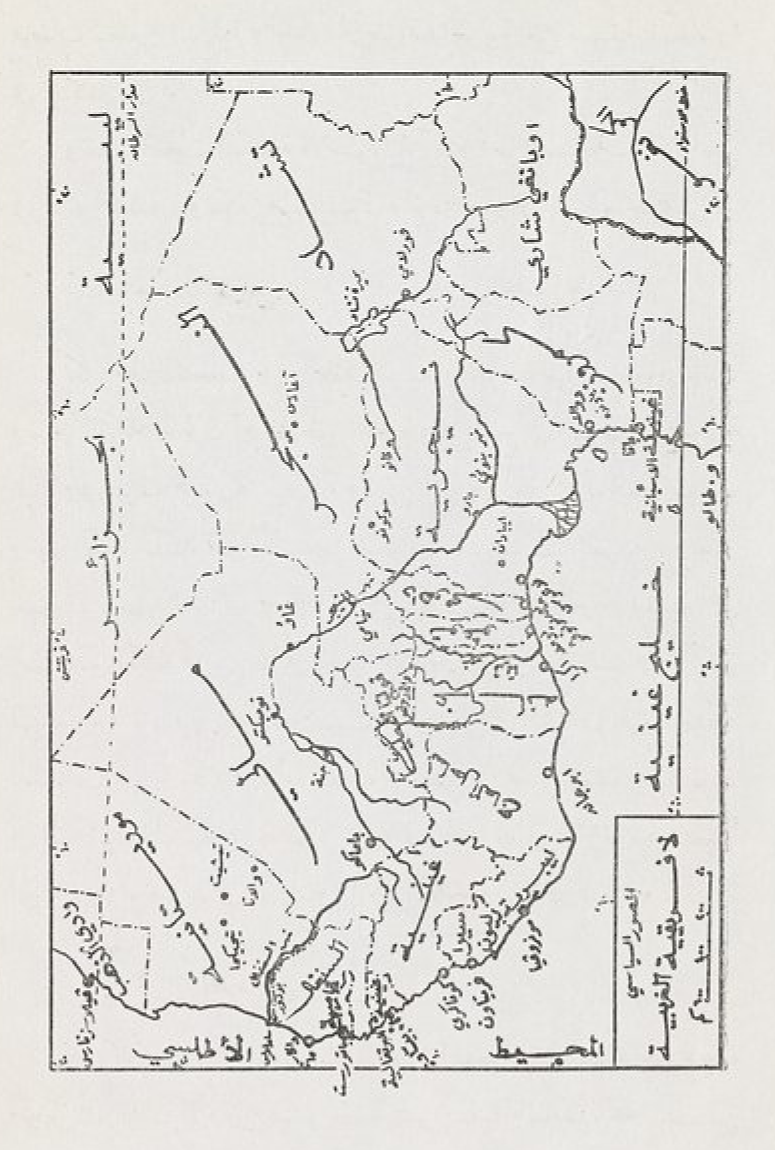
أ — المنطقة الشمالية : أطرافها تصل الى الصحراء الكبرى شمالاً والى وادي النيجر الأوسط جنوباً ، وتتضمن هذه المنطقة الهضاب التالية : « التيبستي» شرقاً ثم الايفوراس والأهير في الوسط ،وهضاب موريتانيا غرباً ، لهذا فان هذه المنطقة صحراوية في اغلب مساحتها تتخللها بعض الوديان والواحات والعيون .

ب — المنطقة الوسطى : حدودها بحيرة تشاد شرقاً والفوتاتورو في السنغال غرباً ،ترتفع في وسطها هضاب النيجر ، وفي هذه المنطقة سهوب واسعة ذات مراع خصبة .

ج — المنطقة الجنوبية : وهي المنطقة المشرفة على خليج غينيا وتضم الكتل الجبلية التالية الفوتادجالون ، والهضاب الايبرية ، فجبال التوكو

---

(١) انظر المصور السياسي لافريقيا الغربية — ص٣



فهضاب نيجيريا الشمالية وأخيراً الأطراف الغربية من سلسلة الآداماوا في الكاميرون .

وتغطي الغابات الكثيفة الاستوائية كثيراً من مساحات الأراضي في هذه المنطقة ، وتكثر فيها السهول والوديان والأنهار الساحلية .

٣ — الجبال

تكاد الجبال تنحصر في المنطقة الغربية والشرقية من غرب افريقيا ، وتعتبر الفوتاد جالون أهم المناطق الجبلية وهي تقع في الغرب في جمهورية غينيا وفي غرب جمهورية ليبريا ، وتصل أطرافها الى شمال السيراليون . وتعتبر هذه الكتلة خزاناً ضخماً للمياه في افريقيا الغربية . ويعتبر جبل « نيمبا Nimba » ١٧٥٢ م على الحدود الليبرية الغينية أعلى قمم هذه الكتلة التي يزيد ارتفاعها الوسطي في وسط غينيا على أكثر من ١٠٠٠ م ، بينما يبلغ الارتفاع الوسطي في الشمال (قرب حدود السنغال) نحو ١٥٠٠ م ، أما الجبال الوسطى في هذه المنطقة فانها تقوم في التوكو ومتوسط ارتفاعها (٩٠٠) م ، بينما يصل الارتفاع في نيجيريا الى ١٧٠٠ م ويزيد في الآداماوا (في الكاميرون) على ٢٠٠٠ م .

٤ — الارض

لقد كان من شأن التغييرات والتقلبات المناخية خلال عهود جيولوجية طويلة أن تغطت الأرض هناك بتربة حمراء غنية بالمعادن ناتجة عن

تفتت الصخور ، وينتشر اكسيد الحديد وفلزاته بين الدرجتين ٧-١٤ شمال خط الاستواء وتسود الرمال في المناطق الوسطى المتاخمة للصحراء وتتلاعب الرياح بهذه الرمال فتشكل منها تلالاً ذات مناظر مألوفة . وكلما اتجهنا غرباً نجد ان السهول الساحلية تتسع وهي صالحة للزراعة . وتعتبر أحواض الأنهار في افريقيا الغربية من أخصب البقاع وهي غنية بالمعادن (أحواض غينيا) ، أما السهوب فانها تسود المناطق الوسطى ويكثر فيها الرعاة .

٥ — الشواطىء البحرية

ترتفع شواطىء افريقيا الغربية في الشمال وهي صخرية في موريتانيا والسنغال ، أما الشواطىء الرملية فانها تبدأ من غينيا البرتغالية وتنتهي في نيجيريا وتشكل بعض الخلجان موانىء صالحة لرسو السفن كما هو الحال في « أبيدجان Abidjan » في ساحل العاج ، وتتوضح الشواطىء الرملية في نيجيريا في الدلتا .. وفي سواحل افريقيا الغربية كثير من الجزر الرملية .

٦ — الغابات

تتميز المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية بكثرة الغابات ، وذلك بسبب كثرة الأمطار وشدة الرطوبة ، وقد تشكلت الغابة العذراء في هذه المنطقة على ارض حمراء خلقتها طوال القرون السحيقة تحولات الأشجار والأوراق البطيئة . وتتكاثف الغابات بشكل عظيم في بعض

المناطق حتى يصبح من العسير اجتيازها (المنطقة الجنوبية من مالي) وتعيش على أطراف الغابات الكثيفة القبائل الوثنية البدائية. وهذه الغابات مراتع طبيعية للحيوانات كالفيل والثور الوحشي وحصان البحر والزرافات وبعض الأسود وبعض فصائل النمر والغزلان.

وبما أن الأمطار الاستوائية الشديدة تعري الارض من المواد المنبتة، فان الفلاح الافريقي يعمد في هذه الحالة، الى حرق قسم من الغابة ليزرع على رمادها لمدة ثلاث سنوات، وعلى هذا سيأتي عهد تقل فيه الغابات العذراء.

٧ — الثروة المائية

تعتبر كتلة الفوتادجالون مصدراً رئيسياً للمياه، نظراً لكثرة أمطارها ولطبيعة تركيبها الجيئولوجي الذي يسمح بتخزين المياه، وهناك الهضبة الغينية الليبرية التي تعتبر الجزء الجنوبي من الفوتادجالون. ومن هذه المناطق الجبلية تنبع أكثر أنهار افريقيا الغربية.

ومن أشهر أنهار افريقيا الغربية: السنغال، وطوله ١٧٠٠ كم وهو ينبع من الفوتادجالون في وسط غينيا ويتألف من رافدين كبيرين ثم يصب في المحيط الاطلسي عند سان لويس، والقسم الأوسط والأخير من السنغال صالح للملاحة، وهو مصدر الخصب في الأراضي التي يمر منها.

وهناك نهر النيجر العظيم (٤٢٠٠) كم، وهو يتخذ منبعه من هضبة

تقع على الحدود الغينية مع السيراليون . يرفد هذا النهر كثير من الانهار على شاطئه الايمن قبل مدينة كباره (ميناء تومبوكتو) ، حوضه الأعلى يقع في جمهورية غينيا وحوضه الأوسط يقع في جمهورية مالي ، ثم ينحدر بعد مدينة كاؤ الى جمهورية النيجر ثم نيجيريا ويشكل عند مصبه دلتا كبيرة . والنيجر صالح للملاحة ابتداء من مدينة كوروسا Korussa في غينيا .

وهناك أنهار أخرى أقل أهمية من النهرين السابقين،منها نهر كامبيا والكازامانس في الغرب ، وأنهار الفولتا في الجنوب وغيرها من الأنهار الساحلية القصيرة .

٨ — المناخ

تمتد افريقيا الغربية بين خط الاستواء جنوباًومدار السرطان شمالاً، وعلى هذا فاقليمها ،عموماً ، شبهاستوائي يتميز بارتفاع عام في الحرارة وزيادة كبيرة في نسبة الرطوبة ويتميز ايضاً بثبات عام في الأحوال الجوية ، وفي الفروق الحرورية .

وتهب على افريقيا الغربية الرياح التالية :

١ - **الرياح التجارية** وهي قادمة من منطقة الضغط العالي في جزر آصور ، وهي رياح باردة مشبعة ببخار الماء ، يصل تأثيرها الى السنغال .

٢ - **الرياح الموسمية** وهي تهب من المحيط الأطلسي دافئة مشبعة بالرطوبة يصل تأثيرها الى الداخل ، ويدوم هبوبها طوال فصل

الأمطار وهي تسبب الأعاصير الممطرة .

٣ ـ الرياح السودانية (الصحراوية) Harmettan وهي رياح جافة تهب من الشمال والشمال الشرقي ، وتكون محملة أحيانا بالرمال . وعندما تصطدم بالرياح الموسمية تحدث أمطاراً عاصفية .

ويمكننا بعد ذلك أن نميز في افريقيا الغربية المناخات التالية :

١ ـ المناخ الصحراوي : يسود هذا المناخ في المناطق الشمالية المتاخمة للصحراء الكبرى ويمتد الى صحاري النيجر ومالي وصحراء فرلو في السنغال ، ويتميز هذا الاقليم بشدة الحرارة ، وقلة المياه وندرة الأمطار .

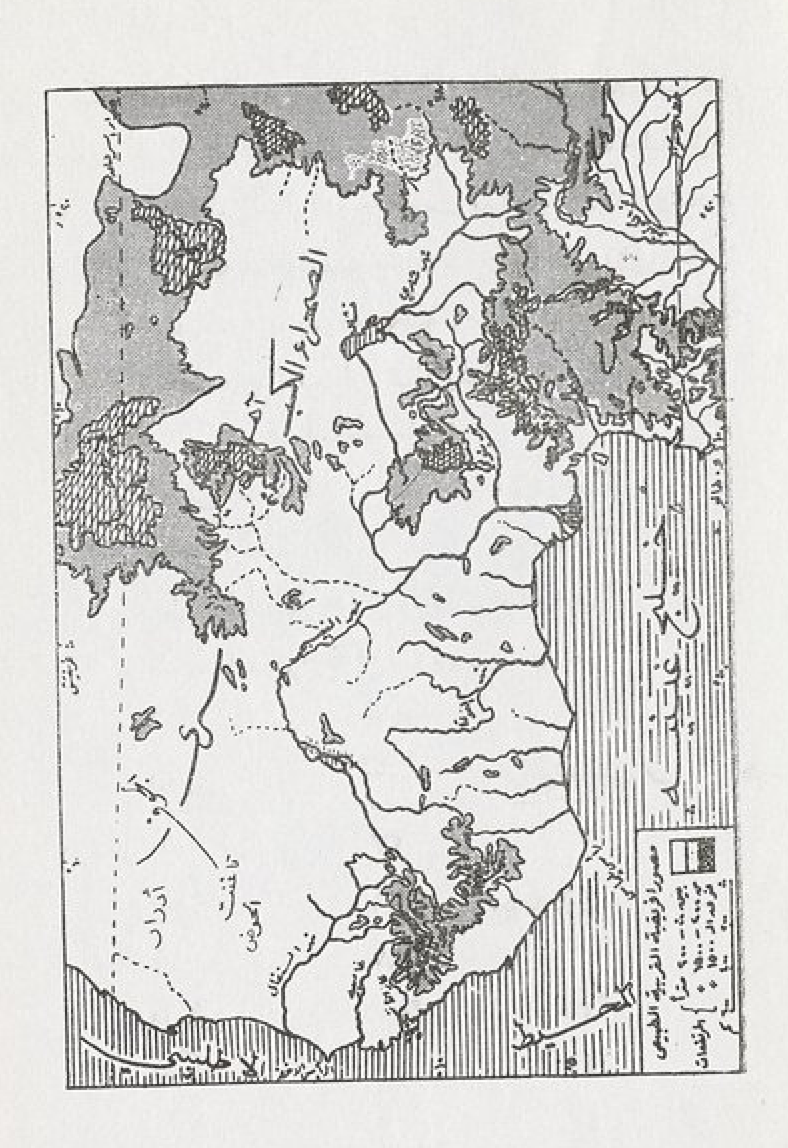
٢ ـ الاقليم الساحلي الشمالي : يتميز بفصلين ، احدهما للجفاف وآخر للامطار وهو قليل الامطار في منطقة تشاد . غير انه ماطر في سواحل موريتانيا والسنغال ، نظراً لتأثره برياح المحيط .

٣ ـ المناخ الغيني : وهو شبه استوائي يرتفع متوسط حرارته الى ٢٨° وهو يتميز بفصلين للامطار ، بينهما فصل للجفاف ، لذا فهو غزير الامطار وهو يمتد من غينيا الى نيجيريا .

٤ ـ مناخ المرتفعات : وهو يسود في المناطق الجبلية ، يميل الى البرودة كما انه غزير الامطار [١]

---

(١) انظر مصور افريقية الغربية الطبيعية ـ ص ٩ .



٩ — الامطار والحرارة

تكثر الامطار في افريقيا الغربية على وجه العموم ، غير انها تقل كلما اتجهت نحو الشمال في الداخل ، وتبقى المنـــاطق الساحلية غزيرة الامطار ، وتصل الغزارة الى درجة تصعب معها رؤية الاشياء وتتحول الارض فجأة الى بحيرات واسـعة متصلة ، غير ان الشمس في ساعات الصحو ، تجفف تلك المياه بسرعة عجيبة . والجدول التالي يوضح نسبة الامطار ومتوسط درجات الحرارة صيفاً وشتاء :

الامطـــار :

المناطق الساحلية	٤٠٠٠ مم^3
المناطق الجبلية	٣٠٠٠ مم^3
المناطق الداخلية	٥٠٠ — ١٠٠٠ مم^3
المناطق الصحراوية	١٠٠ — ٥٠٠ مم^3

الحرارة

المدن	آب	كانون الثاني
كوناكري	٢٧°	٢٧°
ابيدجان	٢٦°	٢٦°
باماكو	٢٨°	٣٢°
داكار	٢٥°	٢٥°
سيكو	٤٠°	٤٠°
واكادوكو	٤٢°	٤٢°

السكان في افريقيا الغربية

تصلح [1] المناطق الواسعة الممتدة من الهامش الجنوبي للصحراء الكبرى الى حدود الغابات الاستوائية لقيام حضارة انسانية راقية. ولقد وجب على السكان في هذه المنطقة أن يجتمعوا حسب امزجتهم وتشابه نظم معيشتهم وأن يستقروا في أفضل المناطق. وقد وجدوا ذلك في المناطق التي تقع على بعد متساو تقريباً من المناطق الشمالية الشديدة الجفاف ومن المناطق الجنوبية ذات الأمطار الغزيرة المستمرة ، وفي هذه المنطقة الوسطى ازدهرت الزراعات السودانية فكانت مهداً للحضارات والدول .

وفي افريقيا الغربية يشعر الزنوج بنسيان تام لأحوالهم ، كما يقول كوتيه Gautier ذلك ان العالم الزنجي في هجرة دائمة، فقد كان سكان الصحراء يهجرون بلادهم الجافة باتجاه الجنوب فكانوا يختلطون بالعناصر التي تسكن في الجنوب ويضطرونها أحيانا الى النزوح ، ولم تكن التضاريس لتستطيع أن تصد المهاجرين أو الفاتحين وعلى هذا فشعوب افريقيا الغربية مزيج كبير من الشعوب والقبائل والجماعات يصعب تعيين

---

(١) انظر في هذا الموضوع : برنار في الجغرافيا العامة الجزء ١١ و كوتيه في كتابه افريقيا الغربية ، ومولار وأنتاديوب .

أصولها وتحديد زمن الهجرات ومراحل الامتزاج ،ولا بد لاستخلاص الحقائق العلمية في هذا الموضوع ،من تآزر علماء الاجناس وعلماء اللغات وعلماء الاجتماع والتقاليد . ولذلك لم يجمع العلماء على نظرية واحدة تشير الى أصول السكان، فهناك نظريات مختلفة تعوزها الأدلة الكافية، ولهذا لا يمكن الأخذ بنظرية دون غيرها . ويبني علماء الاجناس نظرياتهم على التشابه بين جماعات السكان في تكوين جمجمة الرأس والأطراف ولون البشرة وطول القامة . وقد وجدت هناك عدة فرضيات حول المواطن الأولى لسكان غرب افريقيا أقواها تلك التي يقول بها دولافوس وبعض تلاميذه واتاديوب ومؤداها أن افريقيا الشرقية ووادي النيل كانا المنطلق الأول لهجرات متتابعة في عهود بعيدة، عن طريق تشاد أو عن طريق الصحراء. ويستنتج بعض العلماء كالعالمة Humberger من التقارب في الأصول اللغوية والكلمات المشتركة بين بعض اللغات أدلة على وحدة أصل الشعوب في افريقيا الغربية وهم يقولون ان اللغات الافريقية هي تطور للغات المصرية القديمة ، واننا لنجد خلال هذا المزيج الكبير من القبائل والشعوب التي اختلطت دماؤها خلال أدوار التاريخ - ثلاثة عناصر أساسية في سكان افريقيا الغربية وهي :

١ - **الزنوج الأقزام** أو البيكمة Pygmés وهؤلاء ينحصرون في مناطق الغابات وهم أقدم سكان افريقيا الغربية بل افريقيا السوداء كلها، وهم قصار القامة يمتازون ببشرة فاتحة اللون كثيرة الشعر وبأطراف قصيرة وبطن بارز ، ويعيشون على الصيد ،وقطف الثمار وينتشرون على

شكل جماعات صغيرة منعزلة تعتنق الوثنية .

٢ الزنوج : وهم أساس السكان الحاليين وهؤلاء يمتازون بجماجم مستطيلة وببروز الفك الاسفل وببشرة سوداء وشعر مفلفل وبأنف عريض وبأقدام مفلطحة وبشفاه سميكة غليظة .

٣ ـ الحاميون : وهؤلاء يمتازون بالقامة الطويلة وببشرة سمراء نحاسية وبشعر أجعد وبوجه بيضوي وبأنف دقيق وضيق ، وأجسامهم على العموم نحيلة ، أكتافهم عريضة وصدورهم مخروطية الشكل . وقد استقر قسم منهم بينما بقي القسم الآخر على شكل قبائل رحل .

وقد أحتك الزنوج والحاميون منذ زمن طويل بشعوب بيضاء وكان من هذا التمازج شعب اليول أو البوهل أو الفولبية Peulhs, Peuhls, Foulbe وهذه الشعوب البيضاء هي العرب والبربر والطوارق والتوبو .

وقد أراد بعض العلماء أن يجعل في افريقيا الغربية عنصراً رابعاً ، وقد أطلق عليه مولار اسم المجموعة السمراء وهي تضم العناصر الموريتانية في الغرب والطوارق في الشرق ، ويسكن الموريتانيون (أهل شنقيط) من شمال حوض السنغال الى ساقية الذهب والسوس الأقصى وهم في أغلبيتهم من القبائل الرحل ، ينحدرون من عناصر عربية وبربرية يتصفون بسمرة البشرة وبطول القامة وضمور الجسم ، وقد اختلط بعضهم بالعناصر الزنجية ، وهم يتكلمون لهجات عربية بالاضافة الى اللغة الفصحى .

أما الطوارق فانهم يقيمون في منطقة النيجر الاوسط من تومبوكو

حتى هضاب الأهير وهم يشبهون الموريتان بصفاتهم الفيزيولوجية وفي حياتهم الاجتماعية البدوية ، وهم مقاتلون أشـداء ، على أن العناصر السوداء الثلاثة التي مر ذكرها تمتاز بأنها ليست متجاورة في مناطق سكنها ، بل ان قبائل العنصر الواحد قد تتوزع على مسافات مترامية الأطراف ، ونكتفي هنا بذكر القبائل والشعوب التي لها انتشار واسع او التي لها شأن في تاريخ البلاد،وفي هذا الصدد يمكننا ان نميز مجموعتين من السكان : ففي الشمال تأثر السكان بالحضـارة العربية الاسلامية ودانو بالاسـلام وان كان التأثر على درجات متفاوتة ، وهؤلاء حالياً رعاة وزراع وتجار . اما في الجنوب فان معظم السكان من عبـدة الارواح والأوثان Fétichisme, Animisme .. وكلهم مستقرون يعملون في الزراعة ، علاقاتهم مع غيرهم ضعيفة .

ومن شعوب الشمال نميز في المقام الاول المجموعـة السنغالية وتضم هذه المجموعة شعب الولوف أو الدجولوف Djolof, Oulouf وهذا الشعب يسكن في حوض السنغال الأدنى ويتميز بالقامة الطويلة والشعر الاسود الفاحم والذكاء المتوقد ، وكان لهـذا الشعب حضارة راقية ودولة متقدمة بسبب تماسه بحضارة الاسلام زمنا طويلا ، ومن هذه المجموعة شعب السيرير Sèrére الذي يسكن في السنغال الجنوبي ، وفي غامبيا وغينيا البرتغالية . ومن هـذه المجموعـة التكرور أو التوكولور Tekrour, Toucoulour وهم يسكنون في شمـال نهر السنغال في موريتانيا الجنوبية ،وكان لهؤلاء دور فعال في نشر الاسلام ، ويسكن

جماعة منهم الآن في هضاب السنغال .

ومن هذه المجموعة أيضاً الماندينغ أو المالانكه Manding, Malinké وهم ينتشرون في السنغال الأعلى والنيجر الأعلى ، أو فيما يسمى الآن جمهورية مالي (في الجنوب) وجمهورية غينيا والأقسام الشمالية من سيراليون وليبريا وساحل العاج ، وقد اسس هذا الشعب قديماً مملكة مالي التي سيطرت على معظم افريقيا الغربية خلال عدة قرون من العصر الوسيط . ويتفرع عن هذه المجموعة شعب البامبرا في جنوب النيجر الأوسط (أي في غرب جمهورية مالي) Bambara . واذا انتقلنا شرقاً نجد شعب السونغاي Songhaï في النيجير الأوسط وكان لهذا الشعب دولة وحضارة عظيمتان في القرن الخامس عشر ، ويعتقد العلماء ان هذا الشعب قد اختلط بعناصر عربية او بربرية. والى الشرق من هذا الشعب نجد شعب الحوصه Haoussa في شمال نيجيريا وهذا الشعب ينتشر بين الصحراء الكبرى شمالاً وبين نهر بنوئي جنوباً وتنتشر لغة هذا الشعب من تشاد الى أعالي الفولتا .

والى هذه المجموعة تنتسب اغلبية الشعوب التي تسكن في منطقة تشاد ، وهذه المنطقة تسكنها شعوب عديدة امتزجت بسكان الصحراء المعروفين باسم التوبو Toubou ، ومن هذه الشعوب التشادية شعب الكانوري Kanouris في بورنو وشعب الباكيرمي Baguirmi في حوض نهر شاري .

وفي اقصى الشمال من افريقيا الغربية نجد العرب في موريتانيا التي

كانت تسمى شنقيطاً ،والبربر الذين تأثروا بالحضارة العربية الاسلامية تأثراً تاماً ، ثم الطوارق وهم عناصر بربرية تسكن الصحراء شرقي نهر النيجر(في جمهورية مالي وجمهورية النيجر) وكان للعرب وللبربر أثر هام في حمل حضارة الاسلام الى ربوع افريقيا الغربية . وللعرب ايضاً دور كبير في الحضارة التشادية الاسلامية وتأثيرهم هنا ، قادم من السودان العربي .

وفي افريقيا الغربية ومن المجموعة السنغالية التي تحدثنا عنها يسكن شعب البول او البوهل او الفولبية Peulhs Peuhls Foulbè ، وهذا، كما يرجح كثير من العلماء من اصل ابيض ، لان له صفات العرق الابيض: الأنف مستقيم والشفاه رقيقة والبشرة سمراء او حمراء ، وتجاورهم مع الزنوج افقدهم كثيراً من صفاتهم وجعلهم يتركون لغتهم القديمة ويتكلمون باللغات السودانية ، وهؤلاء ينتشرون في رقعة كبيرة جداً ، من السنغال الى نيجيريا ..وقد قدموا الى السنغال عن طريق شمال افريقيا في القرن التاسع وفيما بين القرن الرابع عشر والسابع عشر هاجر البوهل هجرة معاكسة باتجاه تشاد تاركين على طول الطريق جماعات منهم استقرت بين الزنوج وامتزجت بينهم او انعزلت عنهم [1] .

واذا انتقلنا الى شعوب الجنوب فاننا نجد شعب الموسي Mossy الذي ينتشر في مناطق حوض الفولتا ، وكان لهذا الشعب مملكة انهارت بمجيء الاستعمار ، وهذه المملكة كانت تمثل ذروة التكتل الوثني ولهذا الشعب

---

(١) انظر فيما بعد حركة البوهل السياسية .



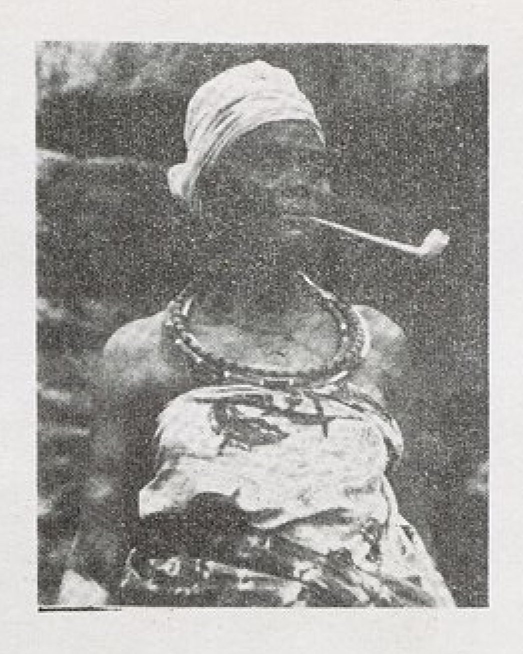
فارس من الطوارق



امرأة من الفوتادجالون (غينيا)



امرأتان من موريتانيا



امرأة وثنية من الداهومي

فتى موريتاني

فروع كثيرة تتوزع على شكل قبائل في المناطق المجاورة (في جمهورية الفولتا العليا ، وفي مالي وفي شمال ساحل العاج وغانا) .

واذا اتجهنا جنوباً الى ساحل خليج غينيا بين مونروفيا والكاميرون فانا نجد عدداً من الشعوب يقال لها المجموعة الغينية ، وهذه الشعوب لم تتأثر بالحضارة العربية الاسلامية .

وسكان افريقيا الغربية ، كغيرهم من أبناء القارة السوداء ، تفتك بهم الأمراض الوبائية المزمنة كالكوليرا ، ومرض النوم والملاريا والحمى الصفراء . كما ان في البلاد أنواعاً من الذباب والحشرات ،ويقع الأطفال ضحية للأمراض والحشرات بينما يحصد منجل الموت الشباب والشيوخ عن طريق ذبابة مرض النوم تسي تسي ، ويصل تأثير هذه الذبابة الى الحيوانات ، ولهذا لاتعيش فصائل الخيل والحمير في المنطقة الجنوبية التي تعيش الذبابة في غاباتها.

ومن جهة أخرى عملت تجارة الرقيق التي مارسها الأوروبيون على انتزاع قسم كبير من الافريقيين من بلادهم .

ومع ذلك فان الاحصاءات التي قامت بها سلطات الاستعمار تدل على أن سكان افريقيا الغربية قد زادوا بنسبة ٥٠ بالمائة تقريباً خلال النصف الأول من القرن العشرين ،وتعود تلك الزيادة الى تعدد الزوجات في نظام الزواج والى قلة تكاليف الزواج مما جعل الكثيرين يقبلون عليه ، والى أن الغذاء متوفر للسكان بشكل رخيص أو بدون ثمن في كثير من الأحيان .

وثمة عنصر هام في ازدياد السكان هو امتناع المستعمرين عن تجارة الرقيق لحاجتهم الى اليد العاملة في استغلال المستعمرات . ومن ناحيـة ثانية المقاومة الشديدة والصلابة التي يبديها الزنوج في مقابلة مشقات الحياة وصعوباتها المناخية .

اللغات في افريقيا الغربية [1]

يرى بعض الباحثين ، وفي مقدمتهم ريشار مولار ، أن تحديـد المجتمعات الافريقية بالتقسيم اللغوي أكثر دقة في دراسة أصول المجتمع الافريقي دراسة علمية .

ويقف في سبيل هذا الاتجاه وجود أكثر من (١٥٠) لغـة في افريقيا الغربية ، كما أن بعض الشعوب الافريقية قد تركت لغاتها القديمة واستعملت لغة الشعب الغازي أحياناً ، أو لغة الشعب الذي هاجرت الى بلاده أحياناً أخرى . ويرى علماء آخرون أن كـثرة اللغـات تدل على كثرة الأصول وتعددها واختلافها . وقد وصل بعض العلماء الى نتيجة هامة وهي أن هذه اللغات على كثرتها تعود الى أصل واحد هو اللغـة السودانية الأم وهذه اللغة تشبه الى حد كبير اللغة السائدة في المهـــد الاول لشعوب افريقيا الغربية .

واننا لا نزال نحتاج الى أدلة قاطعة لتحديد الأصول الاولى لبعض هذه اللغات ، وقد عمد بعض العلماء الى ارجاع كثير من هذه اللغات الى أصول مشتركة ، بسبب التقارب في اشتقاق كثير من كلماتها .

(١) ريشار مولار : افريقيا الغربية الفرنسية .

وتلتقي هذه الأصول عند اللغة السودانية الأم التي تفرعت فيما بعد الى الزمر التالية [1]

١ ـ الزمرة السنغالية الغينية :

وهي تشمل اللغات التي يتكلم بها سكان الساحل الغربي من افريقيا الغربية من السنغال الى السيراليون وأشهر هذه اللغات « البوهل» Peuhl والولوف « Oulof » والتكرور ، « والسيرير » Cerères ويتكلم بها نحو خمسة ملايين نسمة .

٢ ـ الزمرة النيجيرية السنغالية :

وهي تزيد على ثلاثين لغة يتكلم بها أكثر من خمسة ملايين يسكنون المنطقة الواقعة بين أعالي النيجر وتومبكتو ونيامي . وأشهر هذه اللغات : الديالونكة ، الالانكة ، الساراكولة ، السوسو ، السونراي ، « الفلا » .

٣ ـ الزمرة النيجيرية التشادية :

يتكلم بهذه اللغات السكان في شرق النيجر وشمال جمهورية نيجيريا ، وأهم هذه اللغات : الهاووسا في نيجيريا الشمالية وتتفرع هذه اللغة الى لغات محلية حول بحيرة تشاد أهمها الكانوري .

٤ ـ زمرة الفولتا السودانية :

وتنتشر في شمال ساحل العاج وحول فروع الفولتا وشمال جمهورية

(١) افريقيا الغربية الفرنسية لريشار مولار (انظر قائمة المصادر في نهاية الكتاب .)

غانا والتوغو والداهومي ويتكلم بها نحو مليونين من السكان وأشهر هذه اللغات: الموسي Mossy واليا تنكا والسينوفو Sénoufo والكابرة .

٥ ـ الزمرة « الليبرية الداهومية :

وهي تنتشر في المناطق الساحلية الممتدة من ليبريا حتى نيجيريا وأبرز اللغات هنا لغة الأشانتي في غانا والمناطق المجاورة واليوروبا في جنوب نيجيريا وهذه الأنواع الخمسة تسمى باللغات الافريقية [١] وهي متفاوتة في تطورها : منها ماهو قليل المفردات بطيء التطور كاللغات التي تتحدثها بعض القرى الصغيرة ولا تعرفها القرى المجاورة . بينما تأخذ بعض اللغات الأخرى بالتطور حسب حاجة المتكلمين بها . ولبعض اللغات ابجدية خاصة بينما يكون البعض الآخر شفوياً لا أبجدية له ، وهناك لغات تكتب بحروف عربية كلغة الفلا في غينيا ، والهاووسا في نيجيريا وبعض لغات منطقة تشاد .

الاديان في افريقيا الغربية [٢]

كان انتشار الاسلام في افريقيا الغربية في القرن العاشر أول اتصال حضاري لهذه المنطقة مع العالم الخارجي : فلقد حمل التجار العرب دينهم في رحلاتهم التجارية الى ربوع تلك المنطقة قادمين من شمال افريقيا .

---

(١) هناك لغات غير افريقية تنتشر في افريقيا الغربية منها العربية في موريتانيا والتاماشك « فرع من البربرية » لغة الطوارق في جمهورية مالي وجمهورية النيجر .

(٢) هذا البحث موجز عام وانظر اشارة عن الوثنية في الصفحات التالية.

ثم قام المرابطون [1] بهذه المهمة خلال القرنين العاشر والحادي عشر عن طريق الفتوح وبث الدعاة وبهذا وجد الاسلام طريقه، أول الأمر، الى القبائل التي تسكن حوض السنغال. وقد حملت هذه القبائل من التكرور والساراكولة، راية الدعوة للاسلام حتى وادي النيجر، وخلفتها بعد ذلك في نشر هذه الدعوة قبائل البول Peulhs في القرن السابع عشر. وقد توقف زحف الاسلام من الشمال عند الغابات الكثيفة فبقيت سواحل افريقيا الغربية المشرفة على خليج غينيا بعيدة نسبياً عن تأثير الدين الاسلامي. لهذا أصبحت السواحل الجنوبية منذ القرن الرابع عشر ميداناً للبعثات التبشيرية المسيحية التي رافقت الاستعمار، ولم تجد الوثنية، عند ذلك، بداً من التحصن في الغابات.

وقد لاقت الدعوة الى المسيحية نجاحاً ضئيلاً في المدن الساحلية وفي بعض القرى المتناثرة على أطراف الغابات، الا أن الافريقي المتنصر لم يشعر بالأخوة مع المسيحي الاوربي ذلك لأن المبشر الابيض قد انكر عليه تلك الاخوة عندما روج للاستعمار وعمل له، في بعض الأوقات. بل أن بعض المبشرين شعروا بسمو الرجل الأبيض ذلك السمو الذي أخذ شكل التمييز العنصري، لهذا انحسر الوثنيون الى المناطق الداخلية حول الغابات، وعند منابع الفولتا، وهم يستجيبون لدعوة الاسلام شيئاً فشيئاً [2]

---

(١) انظر ص ٢٩ - ٣٠

(٢) الاسلام في الغرب للمؤرخ «رو» والأديان في افريقيا للفرنسي ديشان «انظر ثبت المصادر»

واذا أردنا البحث في عدد أتباع كل ديانة في تلك الأصقاع ، فلن نظفر بدراسة علمية موضوعية دقيقة . فالدراسات الاحصائية تقريبية دائماً ، لانه لم يجر هناك أي تعداد عام للسكان . والسجلات المدنية مضطربة وغير منظمة في كثير من المناطق الريفية . ويقوم احصاء المسلمين على طريقة المآذن ، فالقرى التي توجد فيها المآذن تعتبر جميعها اسلامية ، الا أن كثيراً من القرى يسودها الاسلام وليس فيها مآذن . ويهدف المستعمرون من وراء ذلك الى اخفاء العدد الحقيقي للمسلمين ليجعلوا منهم أقلية [1] أما الكنيسة فانها ضبطت عدد السكان المسيحيين نظراً لقلة أعدادهم . ويعترف كثير من الباحثين الموضوعيين أن المسلمين يشكلون أكثر من نصف السكان في افريقيا الغربية بينما يؤلف المسلمون نحوا من ٩٠ بالمائة من السكان في السنغال ومالي وغينيا والنيجر .



(١) الاسلام فى الغرب المؤرخ الفرنسي «رو» Roux والاديان في افريقيا للعالم الفرنسي H. Deschamps

القسم الثاني

التاريخ السياسي

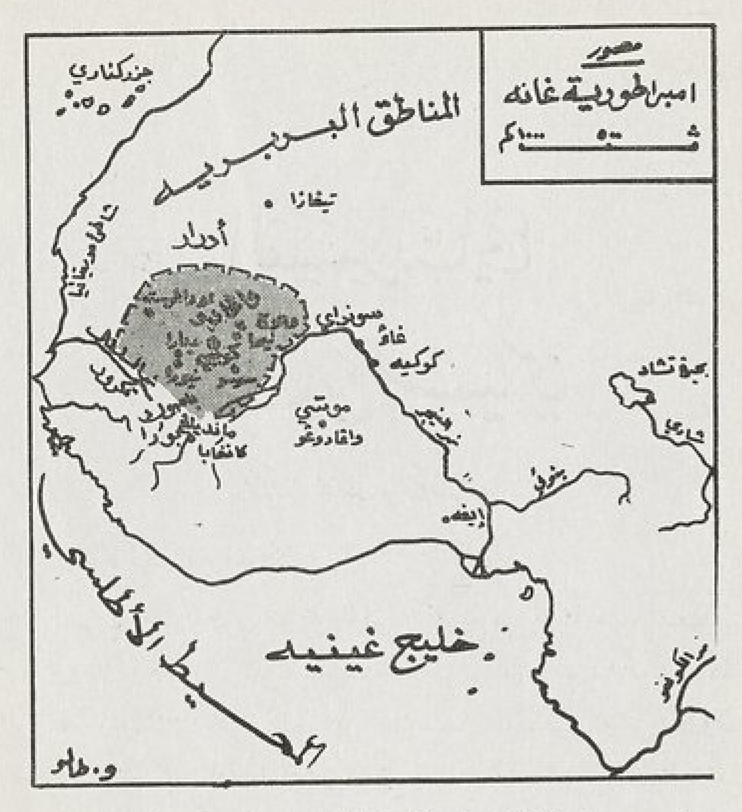
مملكة غانة وحضارتها

نشوء الدولة ونفوذها : (١)

ليس في حوزة المؤرخين أية وثائق مكتوبة عن أولية هذه المملكة. وقد زودنا الرحالة والمؤلفون العرب منذ القرن العاشر ، بمعلومات هامة عن تلك المملكة : ففي كتب ابن حوقل والبكري وابن خلدون اشارات هامة تثبت للبحث العلمي لأنها بنت المشاهدة الشخصية . أما المؤرخان الافريقيان السعدي وكاتي فانهما يحددان القرن الرابع الميلادي كبدء لظهور هذه المملكة (٢)

(١) انظر مصور غانه في الصفحة التالية .

(٢)ستأتي ترجمة المؤرخين الافريقيين. أما البكري فهو عبد الله البكري (١٠٣٠ - ١٠٩٤) جغرافي اندلسي توفي في قرطبه . تجول في السنغال ، وزار كومبي عاصمة غانه وله : المسالك والممالك، طبع دوسلان جزءاً منه عام ١٨٥٧ باسم المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب . أما ابن حوقل فهو رحالةعربي معروف من القرن العاشر . زار الصحراء الموريتانية .



امتدت غانه (١) الدولة الأولى في تاريخ افريقيا الغربية ، بين وادي النيجر الأدنى شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً وبين وادي السوس والصحراء الموريتانية شمالاً ومنابع النيجر والضفة اليمنى لنهر السنغال

(١) ان كلمة (غانه) كانت تعني باللغة المحلية السارا كوله ، القيادة العسكرية ، ثم تحول الاسم الى العاصمة ، مركز القيادة ، ثم اطلق على المملكة . انظر المؤرخ الغيني جبريل نيان في كتابه : مملكة غانه . وقد اطلق سكان ساحل الذهب المستعمرة الانكليزية السابقة ، على بلادهم اسم جمهورية غانا تيمناً بعودة المجد الافريقي القديم .

جنوباً ، فيما كان يسمى بلغة البلاد « واكادو » Wagadou أو فيما يسمى اليوم « جمهورية مالي » و« جمهورية السنغال » . وتدل الروايات التي اعتمد عليها المؤرخون العرب والافريقيون على أن أربعة وأربعين ملكاً تولوا حكم البلاد حتى عام ٧٧٠ م وبعد ذلك تربعت على عرش البلاد سلالة جديدة وفي زمنها دخل الاسلام الى المملكة لأول مرة في القرنين التاسع والعاشر ، عن طريق التجارة أولاً ثم عن طريق الفتوح وبواسطة الملوك . على أن هذه الرقعة العظيمة التي سيطرت عليها مملكة غانه ، لم تكن تابعة لسلطة مركزية ، وانما كانت هناك امارات صغيرة تابعة للعاصمة كومي : غاؤ في الشرق ومملكة مالي في الجنوب والممالك البربرية في الصحراء الموريتانية . وان اتساع رقعة هذه المملكة ، التي بلغت الأوج بين القرنين التاسع والحادي عشر ، ووجود عدد من القبائل الكثيرة تعيش في تنازع قبلي دائم ، كان سبباً في تفتيت وحدة هذه المملكة الكبيرة ، فلم تستطع الصمود أمام الهجمات التي قام بها المرابطون بقصد نشر الاسلام : فقد استطاع الاسلام أن يؤلف بين القبائل البربرية القاطنة في شمال غانه فتمكنت تلك القبائل من أن تتخطف أطرافها الشمالية فاستولت على مدينة أوداغست [١] الا أن غانة قد استفادت من الخلافات القبلية التي استمر أوارها بين البربر فاستعادت بعض الأراضي واستردت نشاطها في مواجهة هذه القبائل

---

(١) سيأتي ذكر اوداغست فيابعد و تقع خرائب هذه المدينة في جمهورية موريتانيا .

المسلمة . وعندئذ شعرت القبائل بضرورة الوحدة تحت زعامة دينية قوية تقف في وجه القوة الوثنية وتستطيع نشر الاسلام في افريقيا . وبعد نزاع مرير تولت قبيلة (جدالة) القيادة وعاد أميرها يحيى بن ابراهيم صاحب أوداغست من الحج مصطحباً معه عبد الله بن ياسين ليقوم بتفقيه القبيلة ، وكان هذا شعلة من الحماس لنشر الاسلام والجهاد في سبيله ، ولم يلاق ابن ياسين في أول أمره كبير نجاح نظراً للنزاع القبلي الذي آذى جهوده ، فانسحب مع بعض أتباعه الى الجنوب ، وأقام في جزيرة على مصب نهر السنغال سماها الرباط ، ارسل منها أعوانه للقيام بالدعوة لدين الله . وقد عاش في الرباط حياة الزهد والورع ، فالتف الناس حوله بعد أن ذاعت شهرته واتخذ لنفسه ولأتباعه لقب المرابطين (أي القاطنين في الرباط أو العاملين بمبادئه) وقد عمل المرابطون على صيانة الاسلام ونشره وتفقيه الناس أصول الدين، وما أن اكتملت قوة المرابطين واطمأن عبد الله بن ياسين الى تأييد أنصاره حتى هاجم مملكة غانه عام ١٠٥٦ واستعاد أوداغست وأعلن الجهاد ضد الوثنية وانضمت القبائل الافريقية التي اسلمت على يديه الى جيوشه ،ولما قتل في احدى المعارك عام ١٠٥٧ انفرد أحد أنصاره بالزحف نحو الشمال وبهم استطاع يوسف بن تاشفين تأسيس دولة المرابطين في المغرب فيما بعد بينما قام تلامذته بمحاصرة كومبي عاصمة غانه عام ١٠٧٦ وفتحوها عنوة واسلم قسم كبير من سكانها كما اسلم ملكها تانكامنين Tanka Menin ودفع الجزية ، الا أن الخلافات القبلية

عادت الى صفوف المرابطين فانتهزت غانه الفرصة وطردتهم من العاصمة عام ١٠٧٨ الا أن تأثير الاسلام قد تغلغل في حياتها .

سقوط غانه ونتائجه : كانت اولى نتائج ضعف غانه أن تحررت الممالك التابعة لهـــا وهي : مملكة « صوصو » و « ديارا » و « غلام » «Sosso» . «Diara» . «Galam» وكان انتصار الاسلام قد اثار تكتلاً وثنياً جديداً بزعامة سومانغورو كانتيـــه Soumangouro Kannte ملك الصوصو [1] (بين النيجر والسنغال) فهاجم هذا الملك كومبي عـــام ١٢٠٣ واستولى عليها ، غـــير ان غانه كانت قد انتهت قبل ذلك منذ ضربة المرابطـــين . وقام بعد ذلك بقليل « ســـونديانا كيته » «Soundiata Keita» مؤسس مملكة مالي بالاستيلاء عليهـا بعد ان هزم سومانغورو كانتيه عام ١٢٣٥ ، وكان لسقوط غانه أثران هامان في تاريخ افريقية الغربية : الاول انتشـار الاسلام على يد الافريقيين من التكرور والساراكوله والثاني ظهور عدد من الدول ســـيكون لبعضها اثر في تاريخ المنطقة .

حضارة غانه [2]

العاصمة كومبي :

اقتبست غانه اسمها من المدينة التي كانت عاصمة للدولة قبل القرن

---

(١) انظر خريطة امبراطورية غانه ٢٨

(٢) المعلومات من جبريل نيان المؤرخ الغيني من كتابه « مملكة غانه » . وقد اتيت هنا على ذكر حضارة غانه الوثنية بايجاز على انني سوف افرد للحضارة فصلا خاصا يجمع الخصائص المشتركة للدول الافريقية .

التاسع ، ومنذ ذلك القرن تعرف العاصمة باسم كومبي .

وتقع كومبي على طريق التجارة بين شمال افريقيا (مراكش وسجلماسه) وافريقيا الغربية ، وهي تبعد عن باماكو عاصمة جمهورية مالي نحو ٣٢٠ كم الي الشمال ، وهي اليوم بالقرب من الحدود الجنوبية لموريتانيا وتعرف باسم كومبي صالح .

ويستفاد من الرحالة العربي الجغرافي البكري ومن تاريخ ابن خلدون مايشير الى أن المدينة قد وصلت الى رقي عظيم . وقد روى البكري أن المدينة كانت مقسومة الى مدينتين منفصلتين تقومان على هضبتين بينهما تسعة كيلو مترات، وكان المسلمون يقطنون أحد القسمين بينما يسكن في القسم الآخر الوثنيون من أهل البلاد ، ويسمى القسم الوثني عند المسلمين بالغابة لأنه عبارة عن أكواخ موزعة بين الاحراش .

ويضم القسم الاسلامي الذي كان مبنياً على طراز مدن المغرب ، اثني عشر مسجداً وعدداً من الكتاتيب لتعليم القرآن والعربية ، ويشير ابن خلدون الى أن مدينة كومبي كثيرة السكان تزدحم فيها المباني ، كما أن بها كثيراً من الأجانب التجار الذي يلبسون ألبستهم الوطنية المختلفة.

وفي القسم الوثني المعابد والهياكل والمقبرة الملكية والقصور ، وبه مسجد لضيوف الملك من المسلمين ، وتقوم المعابد الوثنية في الغابة المجاورة ،لهذا تعتبر مقدسة لانها مقر الكهان والسحرة .وقد مر بنا أن

كومبي قد تخربت للمرة الأولى على يد المرابطين ولكنها عادت الى سابق عهدها بعد مدة وجيزة ، الا أن « سومانكورو » Soumangouro ملك الصوصو قد استولى عليها عام ١٢٠٣ فرحل أهلها الى الشمال من كومبي الى مدينة والاتا التي ورثت مركز كومبي التجاري ، ولما ضمها « سونديانا » الى ملكه خربها تخريباً شاملاً . وقد روى ابن خلدون أنه شاهد شيوخ كومبي في طريقهم الى الديار المقدسة عام ١٣٩٠ مارين بالقاهرة . ومنذ عام ١٩١٤ نشطت بعثات التنقيب الفرنسية للبحث عن آثار كومبي ، وقد جاء في نشرة المعهد الفرنسي لافريقيا I.F.A.N. لعام ١٩٥١ أن بعثة برئاسة « موني » المؤرخ الفرنسي المختص بتاريخ افريقيا الغربية ، قد وجدت بعض المخلفات عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ من التراب المشوي المستعمل في بناء البيوت . وقد وجدت بعض الأبنية مؤلفة من طابقين ، الا أن طبيعة مادة البناء لا تسمح للآثار بالبقاء طويلاً ، وقد اكتشف المقر الملكي ، غير أن قسماً من المدينة لا يزال مطموراً بالرمال وتدل بعض المكتشفات المعدنية على رقي نسبي في صناعة الحديد .

الحياة الدينية : الوثنية (١)

كان الغانيون في أول أمرهم وثنيين شأن بقية الشعوب الافريقية

---

(١) لا يزال البحث في الوثنية الافريقية يظهر تطورات جديدة قائمة على ما يقدمه انفتاح المجتمع الوثني في كثير من المناطق الافريقية وتعتبر قبائل الدوغون Dogons في جمهورية مالي مثالا هاما لدراسة الوثنية . والمعلومات التي نسوقها هنا تعتمد على الدراسات المقارنة وعلى الملاحظة الشخصية للرحالة العربي البكري .

قبل مجيء الاسلام . وتقوم الوثنية عندهم ، كما هو الأمر في الوثنية في جميع أنحاء افريقيا ، على تقديس القوى في الطبيعة كتقديس الأشجار الضخمة والحيات والحيوانات ،وتعكس الوثنية الافريقية أحوال القبيلة الاجتماعية.وفي هذا الصدد يقول « دولافوس »في كتابه زنوج افريقيا: مامن نظام يشاهدين قبائل افريقيا السوداء سواء أكان اجتماعياً أم سياسياً أم اقتصادياً الا وهو يرتكز على فكرة دينية . والوثنية في جميع أنحاء افريقيا تلتقي عند أساس واحد هو شدة الشعور بالروابط الوثيقة التي تربط المجتمع بالبيئة الطبيعية ، وبالأجداد القدماء ، وتمتزج الطبيعة وماوراءها عندهم ، ناايت يعود على شكل ثعبان له أثر في خصب الأرض وفي جلب الرزق .

وكان الغانيون يقدسون الحية ويقدمون اليها كل عام احدى الفتيات قرباناً . ويمدنا البكري ببعض مشاهداته في تلك البلاد فيذكر الأسطورة الشائعة التي تتحدث عن شاب حاول انقاذ خطيبته من هذا المصير المؤسف فحلت بمدينة غانه من جراء ذلك المصائب ، ولحق بها الخراب ، ويقول البكري أيضاً ان الأفاعي كانت تحتفل بتتويج الملك الجديد بخروجها من أوكارها .

من هنا يتبين لنا أن تقديس الحية عند بعض القبائل الاسلامية انما هو راسب وثني قديم توارثته القبيلة منذ العهد الوثني . ويبدو هذا

التقديس في تحريم قتل الحيات تحريماً مطلقاً [1]

وينظر الى الملك الغاني على أنه ممثل للاله ، لأنه زعيم عظيم لأقوى القبائل ، وتشترط فيه القوة التي هي عنصر مقدس بل ان زعيم القبيلة يتدحرج على الارض المحروثة ليجلب لها الخصب .

وعندما يموت الملك توضع جثته تحت قبـــة خشبية على وسائد وثيرة ، ويوضع الى جانبه الطعام والشراب واللباس ويقف الى جانبه خدمه ، ثم تغلق القبة على من فيها ويهال عليهـا التراب حتى تصبح تلاً كبيراً ثم يحفر حوله خندق على مشهد من السكان الذين ينشدون التراتيل الجنائزية . وعلى هذا فان الحياة الآخرة تقـــوم على الايمان بالبعث ،لذا تدفن حاجات الميت معه لأنه يحتاج اليها في حياتـــه الثانية وقد قادهم ذلك الى العناية بالقبور التي كانت على شكل أهـــرامات لايدخلها الا السحرةوالكهان، وقد تطورت هذه القبور بتأثير الاسلام الى أهرامات مضلعة مقطوعة الرأس .

أما المعابد فهي عبارة عن أبنية بسيطة مربعة ذات أبراج اسطوانية مزينة بالصور . وان هذه البساطة في المعابد قد انتقلت الى المساجد التي تبنى في القرى خالية من المآذن [2]

---

(١) ذكر الكاتب الغيني كامارالاي Camara Lay فيروايته L' enfant Noir ان والده منعه ذات يوم من قتل حية كانت تسعى في فناء الدار لان لهـــا صلة بالاجداد ولانها تدر الرزق .

(٢) جبريل نيان Djibril Nian

الحياة الاجتماعية

كان النظام الاجتماعي في غانه يقوم على القبيلة التي تنحدر من أب واحد ، فقبيلة الساراكوله Sarakolle تشكل معظم شعب غانه وهي تتفرع الى عدد من العشائر أهمها عشيرة سيسيه Cissès التي تنحدر منها العائلة المالكة ، وقد ساد هذا النظام في الممالك الافريقية الأخرى . وتقوم بين العشائر عادة قرابة شديدة ،وان هذا التنظيم يعود في أصله الى تقسيم العمل بين عشائر القبيلة الواحدة ،فعشيرة كوروما Koroma كانت تختص بصناعة الحديد وهي تشكل مع غيرها من العشائر التي تمارس المهنة ذاتها قبيلة الحدادين الذين كان لهم مركز مرموق نظراً لحاجة الدولة الماسة الى مصنوعاتهم .وهناك عشائر أخرى تعمل في الزراعة أو في الحياكة أو في الصيد أو في الرعي . وكان الملك في غانه يمثل القمة في الهرم الاجتماعي فهو أكبر زعماء القبيلة وقائدها العسكري ورئيسها الديني ، يساعده في الادارة مجلس للاشراف والوزراء والقواد وحكام المقاطعات وكانوا جميعاً من قبيلته ، وكان الملك يتمتع بالاحترام الكامل ، يقابله الشعب بالانحناء ووضع التراب على الرؤوس دلالة على الخضوع المطلق ، أما المسلمون فانهم يقابلونه بالتصفيق .

وكان جيش البلاد من قبيلة الملك أيضاً ومن المسترقين والمرتزقة وقد بلغ تعداده في بعض الاوقات (٢٤٠) ألفاً [١]

---

(١) تاريخ افريقيا الغربية : كانال ونيان . Canale, Niane



احد الزعماء مع اتباعه في واكادوكو (الفولتا العليا)

ويعيش الملك في قصر مبني بالحجارة تحيط به بيوت الحاشية والأقرباء والخدم، ثم تأتي بعد ذلك بيوت السكان المبنية باللبن والمسقوفة بالقش ، أما المعابد فليست بعيدة عن القصر وهي عبارة عن مجموعة أحراش تدعى الغابة المقدسة ، هي مقر الآلهه والكهنة .

ويمدنا البكري [١] بكثير من الأوصاف التي يصور فيها حياة غانه الاجتماعية عندما زارها عام ١٠٦٧ وهو يقول في وصف الجلوس الملكي والموكب مايلي :

كان الملك وهو في موكبه ، يتحلى بالأقراط والقلائد ويلبس القبعات المطرزة المستوردة من المغرب ويسير في موكبه أبناء الأمراء والملوك المقيمون في القصر كرهائن يضمن بهم الملك ولاء المقاطعات،

---

(١) تاريخ افريقيا الغربية الفرنسية : باري وجونه . Barry, Jaunet

وكان الحرس يحيطون بالملك في حله وترحاله تزدان خيولهم بالجواهر الثمينة . ويجلس الملك في سرادق كبير تحرسه الكلاب المتزينة بالمجوهرات ، وفي السرادق يستمع الملك الى مطالب الشعب . ويتحدث كاتي [1] عن الاصطبلات الملكية فيقول انها كانت تضم أكثر من ألف جواد ، يقوم ثلاثة من الجنود على خدمة كل رأس .

الحياة الاقتصادية :

ان الحياة الاجتماعية الراقية التي تمتعت بها غانه انما هي صورة للفعالية الاقتصادية المزدهرة ، ذلك لأن هذه المملكة قد سيطرت على رقعة شاسعة في الأراضي الخصبة ، فمارس السكان الزراعة في وديان النيجر والسنغال ، وقد تحدث البكري عن اقتصاد غانه الزراعي فقال : ان البساتين كانت تحيط بعاصمة غانه وتنتشر في كل البلاد زراعة القطن والدخن ، كما اشتغل السكان بصيد الأسماك . الا أن أهمية هذا المملكة قد برزت في التاريخ بسبب ثروتها العظيمة من معدن الذهب أولا وبسبب موقعها التجاري ثانياً .

وقد اكتسبت هذه المملكة شهرة عظيمة من وجود هذا المعدن الثمين في أراضيها حتى أن ملك غانه كان يدعى « Kaya Maghan » « كايا ماغان » أي ملك الذهب ، ذلك لأنه كان يجلس على عرش ذهبي كما

---

(١) محمود كاتي هو ابو الثناء محمود بن عمر كاتي الصنهاجي الطومبوكتي « ١٤٦٣ – ١٥٤٨ » قاضي طومبوكتو فقيه ومؤرخ . له : التاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس ، اعتمد عليه المؤرخون الفرنسيون .

بقول كاتي في التاريخ الفتاش . وذكر بعض المؤرخين أن قسماً كبيراً من ذهب المملكة ملك للأسرة الحاكمة [١] . وقد وجد هذا المعـــدن الثمين في المنطقة الواقعة بين نهر السنغال ورافده الجنـوبي « الفاليمة » Paléme وتدعى منطقة Bambouk ، وكان في المملكة منجم هائل يقع الى الجنوب الشرقي من المنطقة الأولى ويدعى منطقـة البورة Boure (في شمال شرق جمهورية غينيا) .

وكانت سوق الذهب ناشطة رائجـة لأن العـــرب كانوا يأتون لشرائه من التجار الغانيين وينقلونه الى أسواق شمال افريقيا ثم يصـدر من هناك الى بلدان البحر الأبيض المتوسط .

ومن جهة ثانية فان غانه كانت محطة للقوافل القادمة من مصر والقيروان ومراكش ، وللقوافل القادمة من المناطـق الجنوبيـــة في أعالي السنغال والنيجر ، ولهذا كانت العاصمة كومبي مركزاً تجارياً عظيماً تزدحم فيها القوافل التجارية وتكثر فيها مستودعات التجـــار الأجانب الذين كانوا يقيمون في بيوت بنوها فوق مخازنهم . ولما انهارت كومبي ظهرت مراكز أخرى للتجارة تقع الى الشمال تطورت فيهـــا الحياة الاقتصادية فأصبحت أمارات تجارية زاهرة مثل أوداغست [٢]

---

(١) جبريل نيان : مملكة غانه .

(٢) تقع اوداغست في الشمال الغربي من غانه، تأسست فيها امـارة صغيرة على يد عدد من عرب شمال افريقيا في القرن التاسع الميــلادي ، وقد اتوا اليها تغريهم تجارة الملح والصمغ . خضعت هذه الامارة لمملكة غانه ، الا ان النفوذ الحقيقي فيها كان للمرابطين الذين دعام اميرها يحيى بن ابراهيم . ولهـــذا امضت الفترة الاخيرة من حياتها مركزا للدعوة الاسلامية. وقد جاء في جريدة Le monde « العدد ٥٠٣٩ تاريخ ١/٤/١٩٦١ ان بعثةمن جامعة دكار قدسافرت الى أوداغست في موريتانيا لاجراء بعض الحفريات الأثرية.

والتكرور [1] ، و« والاتا » « نيا » (الى الشمال من كومبي) .

أما صادرات غانه الى شمال افريقيا فهي العاج وبيض النعام والصمغ وبعض الجلود وجوز الكولا [2] بالاضافة الى الذهب الذي كان المادة الأولى في الثروة الوطنية .

أما القوافل العربية فانها كانت تحمل الى غانه النسيج ، والملح ، والثمر ، ومصنوعات الزينة وبعض الأدوات ، وتعود هذه القوافل محملة بالذهب والبضائع الافريقية ، وقد لوحظ منذ ذلك التاريخ نشاط خاص في تجارة الرقيق الوثني الذي كان حصاداً للفتوح .

على أن رواج التجارة بشكل عام يعود الى أن الأمن كان سائداً في جميع طرقات المملكة مما ساعد على نشوء المدن التجارية التي مر بنا ذكرها ، وعلى ظهور مدن جديدة مثل جنة وكاؤ وتومبوكتو .

وقد عرفت غانه نظام الضرائب فقد كانت تفرض مكوساً على القوافل القادمة أو العابرة كما تعارف التجار الغانيون والتجار العرب على أصول معينة للتعامل التجاري.

التأثير العربي الاسلامي في غانه :

ويقصد بذلك الأثر الذي تركه الاسلام في هذه الدولة الافريقية

---

(١) تطلق كلمة التكرور على المنطقة الواقعة في حوض السنغال الأسفل وتطلق أيضاً على الشعب وعلى الامارة التكرورية التي كان لها أثر في نشر الاسلام بين شعوب الولوف في السنغال . أما والاتا ونيا فهما الآن مدينتان مزدهرتان في موريتانيا .

(٢) ثمرة الكولا نبات افريقي من غابات افريقيا الاستوائية حبته تشبه ثمرة الكستناء ، يمضغه كثير من السكان في افريقيا الغربية . غني بمادة الكافئين المنبهة .

وينبغي أن نشير الى أن التأثرات الاسلامية لم تكن عامة بل كانت ظاهرة خاصة بالعاصمة وببعض المدن الأخرى ، ذلك لأن الاسلام قد أتى الى تلك البقعة عندما كانت غانه تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ومن الملاحظ أن التغلغل الاسلامي في غانه كان في أكثر أحواله سلمياً ، وقد بدأ حين قدم التجار المسلمون الى كومبي فبنوا لسكناهم مدينة خاصة على الطراز المعماري في المغرب فلم يلبث الملك والاشراف أن استقدموا المهندسين المعماريين العرب من فاس ليقوموا ببناء القصور ، وقد امتنع المسلمون عن التدخل في عبادة الافريقيين فمارس المسلمون عباداتهم بحرية تامة ، وبنوا من أجل ذلك المساجد ، وأنشأوا المدارس التي تعلم القرآن والعربية . وقد أقبل المؤمنون الافريقيون على هذه المدارس بشغف كبير ، مما جعل اللغة العربية لغة الثقافة الوحيدة في البلاد بالاضافة الى أنها كانت اللغة التجارية المستعملة في التبادل التجاري والمكاتبات .

وقد اعترف الغانيون للعرب المسلمين بالتفوق الثقافي ،لهذا طلب من المسلمين أن يشاركوا في ادارة البلاد بخبراتهم الواسعة ، ويحدثنا البكري عن أن كثيراً من وزراء الملك كانوا من المسلمين وكان التراجمة منهم ، وكان وزير الخزانة من المسلمين وقد أدخل هذا نظام الضرائب العينية على البضائع المصدرة والمستوردة نظراً لعدم وجود النقد المسكوك .

وقد تولى المسلمون في غانه تنظيم أمور المالية لخبرتهم بها ، وللثقة الكبيرة التي كان الملك الوثني يشعر بها نحوهم . ولما أسلم الملوك أخذوا بالتقاليد الاسلامية التي فرضت على الحاكم أن يتجول في شوارع المدينة ليشرف بنفسه على سير الأمـــور في مملكته ، وليتلقى الشكاوى من المواطنين .

وكان من تأثير الاسلام في هذه المملكة أن أوقـــف التناحر القبلي بين السكان والقبائل التي دانت به . وقد أطل الافريقيون بواسطة الحضارة العربية الاسلامية على عالم الثقافة والنور فلم تلبث القبائل التي اتخذت الاسلام ديناً ، أن حملت لواء نشره بحماس عجيب . وبعد مضي قرنين من ذلك انتشر الاسلام في أودية النيجر والسنغال العليا .وهناك ظهرت مملكة كان الاسلام عنصراً هاماً في تكونها ، بل انه كان الأساس الذي قامت عليه ألاوهي مملكة مالي أو الماندينغ

Mali, Mandingues



مملكة مالي

موقع المملكة :

جاء في كتاب ليون الافريقي [1] « وصف افريقيا » أن مالي [2] تمتد على طول وادي النيجر الأعلى في مسافة لا تقل عن ثلاثمائة فرسخ ، يحدها من الغرب الأطلسي ومن الشرق مملكة كاؤ ومن الشمال الصحراء الموريتانية ومن الجنوب الجبال (الفوتادجالون) .

وقد ذكر العمري عن عثمان ابي سعيد الدقلي الذي عاش في مالي خمسة وثلاثين عاماً ، أن طول المملكة أربعة أشهر وكذلك عرضها [3]

(١) ليون الافريقي (١٤٨٣-١٥٢٦) ، الحسن بن محمد الفاسي الغرناطي جغرافي ومؤرخ ورحالة . زار افريقيا الغربية . وقد اسره القراصنة في احدى رحلاته في البحر المتوسط عام ١٥١٧ وقادوه الى روما حيث أكره على اعتناق المسيحية وعمد باسم ليون الافريقي . وقد عمل في روما معلماً للعربية . له : وصف افريقيا ، مترجم الى الايطالية والفرنسية .

(٢) يطلق اسم مالي على مختلف المدن التي كانت عواصم المملكة ، ثم اطلق على المملكة . وهناك بعض الألفاظ المحرفة من هذه الكلمة كالمانديه Mandes وهو اسم اخر لشعب مملكة مالي . وتطلق على شعب مالي اسم مانديغ Manding او ماندينكو Mandingo وتطلق كلمة المالانكه Malanke على الشعب وعلى اللغة او على المسكن .

(٣) مجلة Notes Africaines عدد نيسان عام ١٩٥٩ انظر مصور أمبراطورية مالي ص ٤٤ .



أما ابن خلدون فقد تحدث عن مالي الا أنه أخطأ في بعض الأسماء وفي المواقع الجغرافية .

وقد كانت مملكة مالي تشغل الدول التالية في الوقت الحاضر : جمهورية مالي في الوسط موريتانيا الجنوبية في الشمال والسنغال وغينيا في الغرب وأراضي ساحل العاج الشمالية والفولتا في الجنوب . وجمهورية النيجر في الشرق .

المصادر العربية ومالي :

ان المعلومات المتعلقة بالنشأة الأولى لهذه المملكة تغلفها الأساطير وقد اعتمد المؤرخون على التقاليد الشعبية المتداولة Traditions في بعض القرى المحيطة بمدينة كانغابا (Kangaba) على نهر النيجر (جنوب باماكو عاصمة جمهورية مالي الحالية) أو القرى الواقعة جنوب مدينة « سيغيري » « Siguiri » (على نهـــر النيجر جنوب غرب باماكو) في شمال شرق غينيا ...

وان نظرة بسيطة في هذه الروايات أو التقاليد تبين لنا أن الضعف قد تسرب اليها بعد عمر يزيد على ثمانية قرون .

فقد تناقلتها الأجيال طوال هذه المدة ولعب بهـــا خيال الرواة وتحكمت فيها أهواؤهم .

وتنسب هذه الروايات أصل ملوك مالي الى بلال [1] مؤذن الرسول وتورد في شجرة العائلة المالكة ثمانية عشر اسماً من ملـوكهم بعضها عربي . وتنتهي هذه الاسماء عند « مغان كون فاتـا » Konfatta والدسوند ياتا ، المؤسس الحقيقي لمملكة مالي . ونفهم من هذه الروايات أيضاً أن الاسلام قد رافق مالي منذ نشأتها . فقد ذكر البكري أن أول ملك أعتنق الاسلام في مالي كان يسمى المسلماني [2] ويسميه ابن خلدون « باراماندانا » وتتلخص قصة اسلامه بأن البلاد قد تعرضت

---

(١) مملكة مالي : جبريل نيان .

(٢) المصدر نفسه .

لجفاف شديد، عام (١٠٥٠)، ضاق به اهلها. ولما سئل أحد التجار العرب المسلمين عن الحل المناسب اقترح على الملك أن يعتنق الاسلام ويقيم صلاة الاستسقاء لكي يرسل الله الأمطار... ويضيف المقريزي أن هذا الملك قد أصبح تقياً ورعاً، سن للملوك بعده تقليد زيارة البيت الحرام كل عام. غير أن الروايات قد أغفلت بعد هـذا الملك ذكر خلفائه الى أن أتى عهد سونديانا (١).

وقد ذكر ابن بطوطة مالي في رحلته اليها عام ١٣٥٣ كما أشار اليها ليون الافريقي الذي زارها في اوائل القرن السادس عشر. اما ابن خلدون فانه يستقي معلوماته عن تاريخ البلاد من الشيخ عثمان مفتي كومبي الذي زار القاهرة عام ١٣٩٤ في طريقه الى الحج، ومن أبي عبد الله محمد السجلماسي الذي كان يعمل عام ١٣٧٤ قاضياً بمدينة غاؤ (جنوب شرق طومبوكتو على النيجر) وينقـل ابن فضل الله العمري تاريخ البلاد عن عثمان الدقلي الذي مر ذكره. ثم تجد بعد ذلك اشارات عن مالي عنـد الادريسي (٢). وان هنـاك أبحاثاً مستفيضة عن مالي في تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي (٣) وفي

(١) مجلة Notes Africaines العدد ٨٢ لعام ١٩٥٩.

(٢) مجلة Revue d'Afrique. Magasine عدد آذار ١٩٥٩ و كذلك العدد ٨٢ من مجلة Notes Afr.

(٣) عبد الرحمن السعدي بن عبد الله بن عمران «١٥٩٥ - ١٦٥٦» مولود في تومبوكتو، درس على والده وعلى علماء تومبوكتو. كان عالماً مؤلفاً واماماً لمسجد جنه ولمسجد سانكور في تومبوكتو. عمل في خدمة دولة «الونراي» في «غاو» وتوفي بها. له: تاريخ السودان، مطبوع ومترجم الى الفرنسية.

التاريخ الفتاش لمحمود كاتي (الذي مر بنا ذكره) وهـــناك روايات افريقية مخطوطة بالعربية محفوظة في دكار ترجم « دولافوس » بعضها الى الفرنسية في مجلة الدراسات الافريقية .

ظهور المملكة

بعد أن استولى المرابطون على غانـــه في عام ١٠٨٧ مرت افريقيا الغربية باضطرابات قبلية ،أدت الى حروب طويلة بين الدويلات الصغيرة التي ورثت مملكة غانه . على أن الاسلام قد تدافعت موجاته بعد ذلك التاريخ ، وساعد على نشوء بعض الدول مثل مملكة مالي بعد أن اعتنق ملوكها الدين الجديد وعملوا بمبادئه على توحيـــد افريقيا الغربية .

ازاء تقدم الاسلام لم تجد الوثنية بدأً من المقاومـة والتكتل، وقد تبلور ذلك في مملكة الصوصو الوثنية الى الجنوب من غانه . ودام رد الفعل هذا مايزيد على قرن ١٠٨٧ - ١٢٣٥ .

ففي أوائل القرن الثالث عشر كان على رأس الصوصو الملـك الوثني « سومانكورو كانتي » وقد أزعجه أن تحاط مملكته من الشمال والجنوب بالاسلام ،فبدأ هجوماً قوياً على غانه انتهى باحتلال كومـي عام ١٢٠٣ ولما خيل اليه أنه انتهى من أمر الاسلام في الشمال، التفت الى المسلمين الجدد في الجنوب أصحاب دولة مالي . ولكـــن المالانكه

وحدوا جهودهم بقيادة أقوى ملوكهم سوندياتا كيتا (١) الذي انتصر على الصوصو وقتل ملكهم في معركة كيرينا Kirina الى الشمال من كانكابا عام ١٢٣٥ . ومنذ ذلك العام بدأ التاريخ المكتوب لمملكة قال عنها دولافوس المؤرخ الفرنسي : ان مالي كانت ، بلا شك ، أقوى مملكة وأشهرها في السودان الغربي .

دور التأسيس : سوندياتا كيتا (١٢٢٥ - ١٢٥٥)

ارتقى سوندياتا عرش بلاده في ظل حراب ملك الصوصو ، فصمم هذا الملك الشاب على انقاذ بلاده من التحكم الوثني لذا اقترن اسمه بالأساطير الشائعة على أنه البطل القومي للماندينغ والمؤسس الفعلي لمملكة مالي .

وفي مقالة للمؤرخ « مامبي سيديبه » « Mamby Sidibe » صورة تامة واضحة عن الملك سوندياتا قال فيها (٢) :

قتل ملك الصوصو « سومانغور وكانتيه » خلال حروبه مع الماندينغ أحد عشر أخاً لسوندياتا ، فصمم هذا على الانتقام لاخوته وعلى تحرير بلاده . وقد سرت بين المتحاربين اشاعة مفادها أن ملك الصوصو لا يقتل الا اذا عرف السر الذي يحميه . فتطوعت احدى

---

(١) سوندياتا ، او ماري دياتا كما يقول ابن خلدون ، تعني بلغة الماالنكه الملك الاسد، اما كيتا فهو اسم العشيرة.

(٢) سيديبه مؤرخ وعالم يقيم حاليا بباماكو عاصمة جمهورية مالي . مقاله منشور في عدد نيسان من مجلة Notes Africaines لعام ١٩٥٩ .

أخوات سوندياتا لمعرفة ذلك ، وتزوجت سومانغورو ملك الصوصو فأفضى لها زوجها بالسر وعندئذ أخبرت أخاها به ،وهو أن يرمي بسهم ملوث بدماء ديك أبيض . ومن ثم جمع سوندياتا زعماء البلاد تحت قيادته وانتصر على الصوصو في معركة كيرنيا (التي سبق ذكرها) .

وقد رافقت هذه الحوادث أساطير طابعها المبالغة ، تنسب لسوندياتا أعمالاً ليست له . وتنتهي هذه الاساطير القومية بأن سوندياتا غرق في نهر السانكاراني (رافد للنيجر) وتحول الى شكل فرس البحر. وقد خلده المنشدون بالاغاني التي تمجد بطولته وتجعله من الرجال المقدسين ولا تزال هذه الاناشيد منتشرة هناك حتى الآن .

ولما هزم سوندياتا الوثنية استولى على ماتبقى من غانه والحقها ببلاده عام ١٢٤٠ ثم وجه همه الى فتوحات جديدة في مناطق النيجر الشرقية وفي الفوتادجالون فوصلت حدوده الى قلب الأدغال جنوباً والى النيجر الايمن شرقاً وتوقفت عند الأطلسي غرباً بينما أوغلت في الصحراء شمالاً . (١)

تنظيم المملكة في عهد سوندياتا

استقر أمر المملكة بعد الفتوحات وتمتعت البلاد باستقرار عظيم وهيبة كبيرة أتاحت لسوندياتا أن يتلقب باسم مانسا (أي السلطان بلغة المالانكه)ثم نظم مملكته على النحو التالي :

---

(١) جبريل نيان : مملكة مالي .

١ ـ أعاد بناء عاصمة جديدة للبلادوهي « نياني » Niani على شاطىء نهر السانكاراني في شمال شرق غينيا .

٢ ـ قسم مملكته الى مقاطعات ولى عليها أقرباءه وجعلها وراثية فيهم .

٣ ـ شجع زراعة القطن واهتم بالصناعة وكلف بها الأسرى الذين وقعوا في يديه أثناء الحروب .

٤ ـ اتبع سياسة الصداقة بين مختلف قبائل مملكته بأن تزوج عدداً من نسائها كما جمل في بلاطه عدداً من الشعراء يمثلون مختلف القبائل .

٥ ـ شعرت البلاد بازدهار تجاري عظيم نظراً لتشجيعه تجارة الذهب وهو الثروة التقليدية للبلاد آنئذ .

مما تقدم نرى أن نشاطاً ملحوظاً قد دب في أوصال المملكة فجعلها تصمد في وجه الاضطرابات في المستقبل (١) .

خلفاء سوندياتا :

ترك ابن خلدون من تاريخ مملكة مالي قائمة بأسماء الذين خلفوا سوندياتا . ورواية ابن خلدون تختلف قليلاً عن الرواية الشعبية لان هذا المؤرخ لم يذكر الا الأسماء العربية للملوك بينما أهمل الاسماء الافريقية (٢) .

وقد ورث سوندياتا ولده البكر مانسا أولين ، أي الملك الأحمر ، لأنه كان نحاسياً (١٢٥٥ ـ ١٢٧٠) ويسميه العرب الملك (علياً) .

(١ و ٢) جبريل نيان : مملكة مالي .

زار هذا السلطان مكة والقاهرة . ثم قام ببعض الفتوحات في السنغال وخلفه بعد وفاته أخواه : واتي Ouati وخليفه ، ثم أبو بكر ابن اخ سونديانا وحكم الثلاثة بين (١٢٧٠ - ١٢٨٥) . وتقول الروايات أن «السلطان «خليفه كان ضعيفاً وبه مس . وفي عام ١٢٨٥ اغتصب الحكم أحد القواد من عبيد العائلة المالكة واسمه ساكوره Sakoura (١٢٨٥ - ١٣٠٠) وقد تمتعت البلاد في عهده بشيء من الاستقرار بعد فترة الاضطرابات التي أوصلته الى الحكم. قلد هذا السلطان المغتصب ملوك مالي الشرعيين فذهب الى الحج ومات في طريق العودة. وفي الفترة بين (١٣٠٠ - ١٣٠٧) تتالى على عرش المملكة عدد من السلاطين الضعاف المغمورين ،أهمهم أبو بكر الثاني ابن اخت سونديانا، ويقول العمري (١) ان هذا السلطان ركب المحيط الاطلسي في محاولة لاكتشاف مجاهله ولكنه مات في عرض البحر .

ويتضح مما تقدم أن هؤلاء السلاطين الذين حكموا مايزيد على نصف القرن ، لم يكونوا ذوي شأن في تاريخ البلاد ، وكانت الدلائل تشير الى ان المملكة تسير نحو الانهيار عندما جاء السلطان موسى عام ١٣٠٧ .

السلطان موسى الاول (١٣٠٨ - ١٣٣٢) م

ورد اسم هذا السلطان في المخطوط العربي الذي ترجمه دولافوس

---

(١) مجلة Notes Africaines العدد ٢٨ مقال بالفرنسية .

باسم « كانكان موسى » Kankan Moussa وكانكان والدته (١) ويسميه العرب سلطان التكرور وهو ابن أحد اخوة سونديانا . ولقد اشتهر هذا الملك بالتقى والورع والكرم ولما حج عام ١٣٢٤ تحدث المؤرخون العرب عن زيارته للأماكن المقدسة وللقاهرة باعجاب كبير، ومن هنا تأتي وفرة المصادر العربية التي تتحدث عن هذا السلطان، وما كتب عنه يتيح للباحث ان يضطلع على اشياء هامة من حضارة مالي آنئذ، تلك الحضارة الافريقية التي طعمتها الثقافة العربية بآثار باقية على الدهر .

انتهج السلطان موسى في أول عهده سياسة ترمي الى توسيع نفوذ المملكة فوصلت جيوشه الى مختلف الانحاء فدانت له تومبوكتو ووالاتا (شمال كومبي) وكاو . والدندي (شمال الداهومي) والفوتادجالون. (٢)

وفي عام ١٣٢٤ سار السلطان الى الديار المقدسة ، عبر مفاوز الصحراء التي تفصل بلاده عن مصر وكانت قافلته التي تضم مائة حمل من الذهب برهاناً ساطعاً على الثراء العظيم الذي تتمتع به مملكة مالي، وقد رافقه في هذه الرحلة حاشية كبيرة تقدر بـ ٦٠٠٠٠ شخص من

---

(١) يجوز عند الملانكه « شعب مالي » ، للولد ان يحمل اسم امه اذا كانت من اصل نبيل .

(٢) كان السلطان موسى يقر على كل ولاية قائداً او حاكما من ابنائها ويأخذ منه احد أبنائه رهينة . وكان من هذه الرهائن الامير علي ابن حاكم مدينة غاؤ ، وسوف نرى ان هذا الامير سيفر من سجنه ليقيم مملكة تساهم في تقويض اركان مملكة مالي .

الوزراء والقواد والعلماء والاتباع .

وقد مر في طريق ذهابه بوالاتا (موريتانيا) وتوات (صحراء الجزائر) فغدامس (تونس) فسيرته (برقه) ثم الاسكندرية فالقاهرة. وفي مصر استقبله السلطان المملوكي الناصر أحسن استقبال وتلقى منه هدايا ثمينة جداً مصنوعة من الذهب الخالص .

وقد قدم السلطان موسى للمرحبين به هدايا كثيرة . وقد تحدث القلقشندي وابن خلدون عن هذه الزيارة التي ادت الى هبوط ملحوظ في سعر الذهب في سوق القاهرة لمدة طويلة .

وفي القاهرة اشترى السلطان موسى عـــدداً ضخما من الكتب العربية وارسلها الى بلاده لتكون منهلاً ثقافياً يرده الشعب الافريقي.

ولما وصل الى الديار المقدسة اتبع فيها خطته في القاهرة فاضطر للاستدانة من أحد تجار الاسكندرية ليحافظ على سمعته وقـــد رافقه التاجر المصري الى مالي ليتقاضى دينه .

كان الملك موسى يتجول في الاسواق على جواد مزركش بالأحجار الكريمة والمعادن الثمينة ، يحيطه أتباعه الذين يحملون قضبان الذهب ، فكانت زيارته من الاحداث النادرة في حياة الناس في ذلك العصر وقد عني المؤرخون بتدوينها [1]

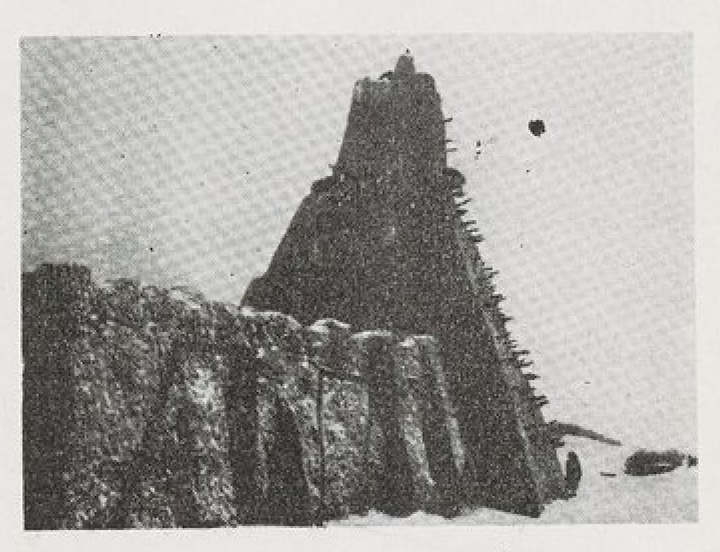
وفي مكة التحق الشاعر المهندس ابواسحاق ابراهيم الساحـــلي

---

(١) مجلة المجلة عدد شباط عام ١٩٦١ مقال للدكتور عبد الرحمن زكي .

بالسلطان موسى وعرض عليه خدماته فأدخله في حاشيته. وقــد كلفه عندما عاد الى بلاده ببناء بعض المساجد في مـــدن تومبو كتو ، وكاو والعاصمة « نياني » وببناء بعض القصور. ويقول ابن خلدون ان السلطان موسى قد دفع للساحلي اثني عشر ألف مثقال من الذهب [1] .

وفي طريق عودته لقى الفقيه أبا عبد الله الكومي الموحدي في غدامس فاصطحبه الى بلاده ليستفيد من ثقافته وخبرته . فكان له وللساحلي نفوذ عظيم في بلاط الملك موسى وكان يأخـــذ برأيهما في شؤون المملكة .



أحد مساجد تومبو كتو

(١) مجلة Notes Afr. دكار عام ٩٥٩.

علاقات مالي الخارجية في عهد السلطان موسى

١ ـ مع البلاد العربية (١)

كان للسطان موسى صلات ودية بسلاطين المغرب والمماليك في مصر عن طريق ارسال السفارات وتبادل الرسائل . وقد أرسل السلطان موسى وفداً الى ابي الحسن المريني سلطان مراكش لتهنئته بانتصاره على ملك تلمسان .

وقد سمح هذا السلطان بارسال البعثات الثقافية من بلاده الى فاس والقاهرة على نفقة الدولة، وكان المتعلمون يعودون ليحتلوا مراكـــز القيادة في بلادهم : فمنهم الأئمة والقضاة ، والمعلمون في المدارس والمساجد في طومبوكتو وغاؤ وجنه ونياني التي غدت مدناً ثقافيـــة هامة . (٢) أما العلاقات التجارية مع البلدان العربية فقـد ازدهرت نظراً لسيطرة الأمن في طرق القوافل ،وكان البربر والطوارق يتولون عمليات نقل التجارة، وقد بلغ تعداد القوافل عام ١٣٥٠ اثني عشر الف جمل وكانت البضائع المصدرة من مالي والقادمة من البلاد العربية تشكل مادة حيوية في اقتصاد مملكة مالي .

---

(١) نيان : مملكة مالي .

(٢) سيرد ذكر هذه المدن فيا بعد .

٢ ـ العلاقات مع البلاد الوثنية :

تميزت علاقات السلطان موسى بالوثنيين بالعنف والتوتر الذي ينتهي دائماً بالحروب التي كان يشنها لنشر الاسلام . وقد صرح السلطان موسى في القاهرة بأنه المحامي الأكبر عن الاسلام وأنه يحارب الكفرة في جنوب بلاده ، وأن مملكته تعد بقعة صغيرة بيضاء في جسم بقرة سوداء .

الا أن التجارة مع المناطق الجنوبية كانت ناشطة وكذلك الوفود والسفارات كانت متصلة بين الجانبين بل ان بعض الوثنيين كانوا يقيمون في مملكة مالي يمتهنون التجارة ويعيشون في وئام مع المسلمين .

كما أقام المسلمون من الالانكه مستعمرات تجارية اسلامية داخل المناطق الوثنية وكان لهؤلاء المسلمين نفوذهم ومن أشهر هذه المستعمرات مدينة كونغ وكوروكو في ساحل العاج [١]

خلفاء السلطان موسى :

يعتبر حكم السلاطين في القرن الرابع عشر استمراراً للقوة والازدهار اللذين كانا سائدين زمن السلطان موسى . غير أن نهاية القرن المذكور قد سجلت شيئاً من الضعف من جراء تنازع أعضاء الاسرة الحاكمة على السلطة . ولهذا يتسم «بالقصر» عهد كل من الملوك الذين تتالوا بعد السلطان موسى .

---

(١) نيان : مملكة مالي .

خلف مغان الاول (١٣٣٢ - ١٣٣٦) والده موسى ، وكان هذا الملك عديم الخبرة والتبصر فقد أطلق سراح أحد الرهائن الذين كان يحتفظ بهم والده ، فذهب هذا الأمير الى بلده (غاو) وعمل فيها على تأسيس مملكة « السونراي » « Sonrai » وعلى محاربة مالي [١] وفي عهد هذا السلطان بدأت قبائل الموسي Mossy الوثنية بمهاجمة اطراف المملكة [٢]

وقد خلفه عمه سليمان بن أبي بكر (١٣٣٦ - ١٣٥٩) ، وكانت المدة الطويلة التي قضاها في الحكم قد أتاحت له فرض طاعة المملكة على كثير من المناطق ، وعلى تأديب الوثنيين الا أنه لم يفلح في استرداد مدينة غاؤ التي تنمو خطورتها بصورة دائمة على مملكة مالي .

وقد استقبل هذا السلطان الرحالة العربي ابن بطوطة عام ١٣٥٣ . ولما مات السلطان سليمان خلفه ولده « كامبا » لبضعة أشهر من عام ١٣٦٠ انتقل الحكم بعدها الى « سونديانا الثاني » بن مغان الاول بن موسى (١٣٦٠ - ١٣٧٤) ، وقد اشتهر أمر هذا الملك بالطغيان وتبديد ثروات المملكة وبعجزه عن رد العدوان الوثني على مالي . وقد ذكر ابن خلدون أنه كان لهذا السلطان صلات ودية بسلطان المغرب أبي سالم المريني ، وقد أرسل اليه زرافة كانت موضع اعجاب الناس في مراكش . توفي هذا السلطان بمرض النوم فخلفه ولده موسى الثاني

---

(١) انظر ص ٥٢

(٢) سيأتي ذكر قبائل الموسي فيما بعد.

(١٣٧٤ - ١٣٨٧) وكان هذا تقياً متسامحاً ترك السلطة بيد أحد وزرائه ، وقد تميز عهده بهجوم الطوارق على تومبوكتو . خلفه بعد ذلك أخوه مغان الثاني عام ١٣٨٧ ، وقد بدأ عهده بحروب أهلية بين الطامعين بالعرش ، قتل هو فيها [١] . وقد وجد أحد أحفاد سونديانا الاول مؤسس مالي ، الذي كان يحكم مدينة كيتا (شمال غربي العاصمة) الفرصة سانحة للقضاء على الاضطراب فاستولى على الحكم باسم مغان الثالث عام ١٣٩٠ وبه بدأت سلالة (كيتا) الجديدة التي استمرت في الحكم حتى مجيء الاستعمار الفرنسي .

دور الانحطاط :

منذ أوائل القرن الخامس عشر أخذ نجم مالي بالأفول أمام القوة المتزايدة لمملكة غاؤ التي نشأت شرقي مالي على النيجر الأيمن . وقد تطلع ملوك غاؤ الى توسيع نفوذهم على حساب مملكة مالي المتداعية ، فضموا الى أملاكهم أراضي مالي الشمالية والشرقية بينما نهب الطوارق طومبوكو ووالاتا .

وهكذ عاني سلاطين سلالة كيتا Kita كثيراً من المصاعب الخارجية في سبيل تثبيت سلطتهم ، وقد أرادوا أن يعوضوا عن فقدان المناطق الشمالية والشرقية من مملكتهم ، فوجهوا اهتمامهم للمناطق الغربية في كامبيا وماحولها . ولكن المملكة كانت تسير من ضعف الى ضعف

---

١ جبريل نيان : مملكة مالي.

وتحول تاريخها الى حوادث محلية ضيقة . ويقول جبريل نيان المؤرخ الغيني : لقد اكتنف الغموض الأطوار الأخيرة من حياة مملكة مالي ، لذلك يجد الباحث في تاريخها الأخير ثغرات كثيرة في اسماء السلاطين وفي أخبارهم . [1]

نهاية مالي والاستعمار :

كان اهتمام سلاطين مالي في القرن الخامس عشر والسادس عشر بالمناطق الغربية على الأطلسي ، يدعوهم الى الدخول في علاقات مع البرتغاليين الذين بدأوا يقيمون على الشواطىء في افريقيا الغربية ، مراكز لتجارة العبيد منذ مطلع القرن الخامس عشر [2] [3]

---

(١) نيان : مملكة مالي .

(٢) في تجارة العبيد انظر Roux , Diop , Suret, Canale وراجع قائمة المصادر في آخر الكتاب .

(٣) لقد تركت هزيمة الصليبيين جرحاً بليغاً في نفوس الاوربيين فبدأوا يفتشون عن طريقة ينتقمون بها من التفوق العربي . وقد هداهم تفكيرهم الى الحرب الاقتصادية عن طريق ضرب التجارة العربية في جنوب آسيا والمحيط الهندي . ووجدوا ان خير طريق لذلك الدوران حول سواحل افريقيا . ولما تم لهم ذلك وبعد اكتشاف امريكا . اخذ البرتغاليون ، قراصنة ذلك العصر ورواد الاستعمار الاوائل ، باقامة مراكزهم على سواحل افريقيا الشرقية والمحيط الهندي . ولم تلبث هذه المراكز ان اصبحت نقاط انطلاق لاقدم انواع الاستعمار ، اذ سيطر البرتغاليون قرابة قرن ونصف على اغلب السواحل هناك . وقد احتاجوا الى ايدي عاملة جديدة في مستعمراتهم بامريكا لتعمل في المزارع والمناجم ولتحل محل الهنود الامريكيين الذين ماتوا من العمل المرهق في مناجم الذهب بصورة خاصة ، فوجدوا ضالتهم في سكان ←

وتروي المصادر البرتغاليـــة [1] ان موسى الثالثوأولين الثاني (علي الثاني) قد دخلا في علاقات تجارية مع ملوك البرتغال الذين كانوا يتحرقون شوقاً للاستيلاء على المملكة الضعيفة . وقد تبادل محمد الأول الهدايا عام ١٤٨٥ مع حنا الثاني صاحب البرتغال،وقد أرسل هذا سفيرين الى نياني، كانافي الوقت نفسه مكتشفين ، وقد كتبا عن رحلتهما كثيراً من المعلومات التي افادت الاستعماريين فيما بعد . وقدوجـــد البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر الفرصة سانحة لاحتلال بعض المراكز الداخلية عندما طلب منهم الملك محمد المساعدة ضد الثائر كولي تانكيلا Ko'y Tanguela أحد زعماء البوهل الذي اعتصم بالفوتادجالون وحارب الملك محمد بسبب تعاونه مع الأجانب ومن ثم اقتطع بعض الأراضي وانشأ عليها امارة . وكرر السلطان محمود الثاني طلب المساعدة مرة أخرى

← افريقيا ، فغدت نقاط السواحل ، منذ القرن الخامس عشر ، مراكز لتجميع الافريقيين تمهيداً لنقلهم وبيعهم في امريكا ، ومن ثم اشتركت الدول الاوربيـــة الاستعمارية في هذه التجارة الرابحة التي دامت قرابة اربعة قرون ، اختطف الاوربيون خلالها نحو مائة مليون افريقي ، مما سهل عليهم احتـــلال البلاد الافريقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وكان العبيد يحشرون باعداد كبيرة في مراكب صغيرة خلال رحلاتهم عبر الاطلسي ، فيموت منهم الكثير ،وقدقدر الباحثون ان افريقيـــاً واحداً يصل الى امريكا يقابله خمسة ماتوا اثناء القنص داخل الغابات والسير الى الساحل والنقل بالمراكب ، وقد قال احد كبار التجار الاوربيين : اننا لانبالي بموت العبد الافريقي اذا كان يقدم لنا من الارباح مايفوق ثمنه !! انظر صورة قافلة الرقيق ص ٦١

(١) نياني : مملكة مالي .



قافلة الرقيق

عن لوحة في متحف المستعمرات في باريز

عندما هاجم الموسي[1] المملكة . فدخل البرتغاليون الى منطقة غامبيا[2] ثم تمركزوا في حوض الكازامانس[3] الى الجنوب من غامبيا (غينيا البرتغالية) في النصف الاول من القرن السادس عشر .

وقد انتهز البرتغاليون فرصة انقطاع طرق التجارة الشرقية والشمالية عن مالي فاحتكروا التجارة معها تغريهم ثروة البلاد من الذهب، وشجعوا بعض المقاطعات الشمالية في السنغال على الانفصال عن المملكة، وهكذا نشأت في مطلع القرن السادس عشر دولة قبائل « الولوف » المعروفة باسم كايور Cayor (الى الشرق من دكار) وتفيد النصوص

---

(١) كانت قبائل الموسي الوثنية تعيش منذ القرن الحادي عشر جنوبي عطفة نهر النيجر في مناطق الفولتا وفي وادي نهر ماني احد روافد النيجر ، وقد شكلت بعض الممالك الصغيرة لعبت الاساطير دوراً كبيراً في حياتها وتاريخها وكانت هذه القبائل تشكل حاجزاً وتكتلا وثنياً ضد تقدم الاسلام نحو الساحل الجنوبي لخليج غينيا ، والمعلومات عن هذه القبائل ضئيلة لم يعرف امرها الا لانها هاجمت الدولتين الاسلاميتين كاو في الشرق ومالي في الغرب . وقد بدأ ملوك الموسى « الياتنكا » غزوات منظمة ضد المسلمين الا انهم تلقوا من غاؤ هزائم منكرة في عام ١٥١٢ وما بعده وقد استفادت مالي من تناحر قبائل الموسي فيما بينها على ان العلاقات التجارية بين المسلمين والوثنيين كانت طبيعية بل ان المسلمين شكلوا جاليات تجارية وصلت الى الشمال من جمهورية غانا . وقد استمر بقاء الموسي حتى مجيء الاستعمار الافرنسي ، وكانوا هدفاً للدعاة والمبشرين .

(٢) كان حوض نهر غامبيا يسمى بلغة الماندنكه نياني مانسا : أي أراضي العاصمة نياني أو أراضي سلطان نياني، وكامبيا الآن تدعى اللسان الانكليزي في السنغال.

(٣) الكازمانس : اسم نهر في السنغال واسمه مأخوذ من كلمة كازامانسا أي أراضي السلطان .

البرتغالية أن الأقسام المتبقية من مالي التي تشكل نافذة تطل على الاطلسي كانت تتمتع بازدهار تجاري وزراعي .

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر تعرضت مالي لهجمات شديدة من مملكة غاؤ وحاول سلطانها محمود الثالث أن يعيد اليها بعض هيبتها فهاجم طومبوكتو عام ١٥٩٩ الا أنه لم يفلح في استعادتهـــا، وانحصرت مالي للمرة الأخيرة على نافذة صغيرة على الأطلسي تتاجر منها مع البرتغاليين .وفي مطلع القرن السابع عشر تكتلت قبائل « البامبا » الوثنية [1] في أواسط النيجر حول مدينة « سيغو Ségou » وشكلوا دولة دام أمرها الى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت هي الأخرى تتوسع على حساب أراضي :لمكةمالي الشمالية ، لذا اضطر سلاطين كيتا

(١) كان التقدم الاسلام في افريقيا الغربية خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر أثر في ظهور مملكة سيغو الوثنية وقد قام زعيم البامبارا Bambara الوثنيين ومؤسس هذه المملكة Mamari Couloubali ماماري كولوبالي بحملات توسعية في الوديان الواقعة بين النيجر وروافده باني واستطاع بجيوشه ان يسيطر لفترة من الزمن على السنغال الشرقي وعلى طومبوكتو و« جنه » ، وقد تحالف البامبرا مع الموسي ضد المسلمين الا أن التنازع القبلي كان يفت في عضدهم ولما مات كولوبالي ثار القواد على ولده ثم استقر الحكم على يـــد نكولو ديورا Ngolo Diora (١٧٦٦-١٧٩٠) فوطد سلطته وهاجم المسلمين ثم حارب الموسي لأنهم نازعوه في السياده . وكانت قوة الوثنيين تتعاظم اذا ما ساءت ظروف المسلمين لذا لم يعد لهذه الدولة ذكر عندما تعاظم أمر الاسلام في المناطق المجاورة منذ مطلع القرن التاسع عشر ولما وحد « الحاج عمر » أمر المسلمين ضد الاستعمار الفرنسي كان عليه أن يقضي على مملكة سيغو الوثنية وأن يقتل آخر ملوكها عام ١٨٦١ . ولما انتصر الغاصبون الفرنسيون أصبح البامبارا عملاء لهم ضد المسلمين .

الى الأكتفاء بمدينتهم الجديدة كانغابا (الى الجنوب من باماكو) منذ عام ١٦٧٠ وقام البامبارا مرة أخرى بهجوم على العاصمة « كانغابا » في عام ١٦٩٦ انتهى بدفع مالي الجزية للوثنيين . ثم أعادوا الكرة عليها في مطلع القرن الثامن عشر فهدموها ، واضطر أهلها الى مغادرتها الى المناطق المجاورة ، ولما دب الضعف في مملكة سيغو الوثنية بسبب التنافس القبلي، أعاد سلاطين مالي بناء عاصمتهم واستقروا فيها قرابة قرن ونصف حتى هاجمهم الاستعمار الفرنسي واحتل « كانغابا » عام ١٨٩٣ ونقل امراء العائلة Kita الى باماكو . الا أن هذه الاسرة ظلت تكافح الاستعمار الفرنسي ويتحالف زعماؤها مع المناضلين الآخرين كما حدث عندما تحالف سلطان كانغابا (فادي كيتا) مع ساموري توري (جد الرئيس سيكوتوري) الذي ناضل الفرنسيين طيلة سبعة عشر عاماً ، وفي عهد الاستعمار كان أبناء هذه الاسرة يساهمون ويقودون حركات النضال ضد الافرنسيين الى أن فازت البلاد باستقلالها عام ١٩٦٠ باسم جمهورية مالي تيمناً بعود مجد مملكة مالي القديم ، والى هذه الاسرة ينتسب الرئيس الحالي لجمهورية مالي .

عاصمة مالي :

ان شيئاً من الغموض يكتنف الأخبار القليلة عن نشأة العاصمة وتطورها وقد ورد اسم العاصمة مالي أو نياني في مؤلفات العرب ، كابن خلدون والعمري وابن بطوطة والمؤلفين الافريقيين السعدي وكاتي [1]

---

(١) نيان : مملكة مالي .

لكن هؤلاء جميعاً لم يحددوا موقع العاصمة بل ان ابن بطوطة الذي زار عاصمة مالي واقام بها قرابة شهرين لم يعين مكانها بين المدن التي تنتشر حولها . ولكنه ذكر أنه ركب النيجر للوصول اليها .

ولقد كرس بعض المؤرخين الأوربيين جهودهم للكشف عن عاصمة مالي ولمعرفة موقعها، فدرسوا النصوص العربية دون أن يجدوا فيها مايدل على موقع المدينة .

وقد جاء في نشرة المعهد الفرنسي لافريقيا الغربية .I.F.A.N عام ١٩٢٣ نقلاً عن ابن خلدون : أن عاصمة مالي تسمى نياني [1] .

ويقول « دولافوس » عام ١٩٢٤ في كتابه (غانه ومالي) ان عاصمة مالي كانت تقع عند التقاء السانكاراني بالنيجر وكان اسمها ديليبا Dieliba على الشاطىء الأيمن للنهر في مواجهة كانغابا .

ثم نقلت في نهاية القرن الثالث عشر الى « نياني » على الشاطىء الأيسر للسانكاراني ، وتقع خرائب هذه المدينة حالياً في منطقة سيغيري « Siguiri » التابعة لجمهورية غينيا والواقعة في الشمال الشرقي . وفي عام ١٩٣٨ ذهب العالم الفرنسي « هرفيه » « Hervé » الى تلك المنطقة ليبحث عن عاصمة مالي عن طريق الاستماع الى الروايات الشعبية التي يتداولها السكان هناك ولاجراء بعض الحفريات .وقدأخبره السكان أن عاصمة مالي كانت تتعرض دائماً لهجوم دائم من الشرق : من غاو

---

١ مجلة . Notes Afr عدد خاص في ذكرى قيام اتحاد مالي عام ١٩٥٩.

والموسي والبامبارا ،وفي كل مرة كانت المدينة تهدم ثم يعيد السلاطين بناءها في أمكنة أخرى قريبة من المدينة الأصلية ،وبذلك أصبح هناك عدد من الامكنة المتقاربة التي تسمى نياني ، عاصمة مالي ، بل انه من المؤكد أن هناك مراكز ثانوية اتخذها السلاطين مقراً لهم . وقد أظهرت الحفريات التي اجريت في منطقه سيغيري قسماً من السور القديم وآثار بعض البيوت المبنية بالطين المشوي الذي لا يبقى طويلاً، كما اكتشفت بعض الأماكن المقدسة . وقد صرح هرفيه [1] ان السكان هناك حريصون على حرمة أجدادهم وسلاطينهم القدامى لذلك لا يدلون بمعلومات عن القصور أو المساجد أو الأخبار والحوادث. وبعيد استقلال غينيا اتجهت النية الى بعث التاريخ الافريقي القديم والى البدء بحفريات جديدة للكشف عن حضارة مالي . [2]

(١) مجلة Revue Magasine من مقالة للعالم الفرنسي هرفيه

(٢) كان للتأثيرات العربية شأن كبير في حضارة مملكة مالي ومملكة غاو والممالك الاسلامية الأخرى لذا سنتحدث عن ذلك فيما يمكن أن نسميه الحضارة الافريقية الاسلامية في بحث مستقل .

مملكة السونراي في غاؤ

دور النشوء :

كانت قبائل السونراي أو السونغوي Sonraï Songhoï تعيش على امتداد وادي النيجر الأوسط ، الى الشمال من الداهومي . وكانت تشكل عشيرتين كبيرتين متعاديتين (١) وقد اضطرت احداهما في نحو عام ٨٩٠ الى ترك مواطنها الأصلية باتجاه الشمال وتمركزت حول محطة القوافل (غاؤ). ويقول السعدي (٢) ان قسماً كبيراً من هذه القبيلة قد استجاب لدعوة الاسلام التي بشر بها دعـــاة قادمون من طرابلس الليبية، ولم يلبث هؤلاء الدعاة المثقفون ان أصبحوا حكاماً لهذه القبيلة الكبيرة . وبذلك تأسست أمارة صغيرة حول غاؤ في مطلــع القرن الحادي عشر. وقد تطورت المدينة وأصبحت عاصمة للسونراي بعد قرنين ونافست كومبي ومالي بفضل موقعها التجاري العظيم ، فقد كانت في منتصف المسافة بين السودان الشرقي (سودان الخرطوم) وتشاد

(١) تاريخ افريقيا الغربية الفرنسية لباري وجونه .

(٢) المصدر نفسه وتاريخ افريقيا للمؤرخ الفرنسي كانال .

وبين السودان الغربي والأوسط (افريقيا الغربية) وكانت ايضاً نقطة الاتصال بالجزائر شمالاً وبطرابلس في الشمال الشرقي[١، ٢]

وتقول الروايات [٣] ان الدعاة المسلمين اندمجوا بعد مـــدة في العناصر الزنجية عندما ساد الاسلام بين جميع القبائل، والملك الخامس من السلالة الحاكمة أول من اعتنق الاسلام. وقد ظل الملوك في أول امرهم يخضعون اسمياً الى ملك غانه حتى القرن الثاني عشر ثم الى مالي في القرن الثالث عشر والرابع عشر، ولما غاب نجم مالي منذ مطلع القرن الخامس عشر أعلنت مملكة غاؤ استقلالها بين تهديـــد قبائل الموسي الوثنية في الجنوب وغزوات الطوارق في الشمال والشرق. وكان الملك «علي الكبير» هو الذي قاد بلاده الى مرحلة القوة والشهرة .

(١) تقع غاؤ الآن على عطفة نهر النيجر في جمهورية مالي. وتبدأ حياتهـــا في القرن الحادي عشر على وجه التقريب. وقد وصفها البكري فقال: انها مثل غانه ففيها أحياء خاصة بالتجار المسلمين من عرب شمال افريقيا. ويقول «ليون الافريقي» الذي زارها في اوائل القرن السادس عشر: كانت غاؤ تشبه طومبو كتو، مساكن الشعب فيهـــا قبيحة المنظر الا أن قصور الملوك ورجال الحاشية جميلة انيقة. وفي المدينة كثير من الآبار وسوق عامـــة لبيع العبيد فكانت الفتاة في الخامسة عشرة تباع بنحو ست دوكات ذهبية (الدوكة نقد مستعمل في ذلك التاريخ) بينما يرتفع سعر الحصان إلى خمسين، وكان في المدينة كثير من البضائع الأوروبية وكثير من الخضار التي تزرع في بساتين المدينة وقد عملت يد التخريب والحروب في آثار مدينة غاؤ، فلم يبق بها إلا المسجد وقبر الملك محمد وكان قسم من سكان المدينة من الطوارق الذين تولوا الدفاع عنها ضد الاستعمار الفرنسي.

« النص مترجم بتصرف عن تاريخ افريقيا الغربية لباري وجونـــه »

(٢) انظر مصور افريقيا الغربية السياسي الطبيعي .

(٣) تاريخ افريقيا : جان كانال .

دور التأسيس والقوة : سوني علي بير (1) Sonni Ali Ber

كان الملك علي الثامن عشر من السلالة الحاكمة ، ويقـــترن اسمه بظهور مملكة غاؤ على مسرح التاريخ ، لأنه كان المؤسس الفعلي لهذه المملكة ويتسم عهده (١٤٦٤ - ١٤٩٢) بالحروب الكثيرة التي أراد من ورائها توطيد أركان المملكة وتوسيع رقعتها . وكان هـــو نفسه محارباً عظيماً ، صمد أمام عدد كبير من الاعداء الطامعين بلاده .

وقد شن قبل كل شيء حرباً ضروساً على الطـوارق ، فاستعاد منهم طومبوكتو بين عامي ١٤٦٨-١٤٨٠ . وقد عارضه العلماء والشيوخ في حروبه ضد بني دينه واتهموه بضعف الايمان . وتآمروا عليه فاضطر الى ذبح عدد كبير منهم ، فكرهته الطبقة المستنيرة .

ومن جهة أخرى كانت جيوش الملك علي تهاجم مملكة مالي فاستولت على جنّه عام ١٤٧٥ ، غير انه واجه تكتلاً عظيماً وثنياً ضد تقدم الاسلام يتمثل في هجوم قبائل الموسي في الفولتا عـلى اطراف المملكة الجنوبية . وقد جرد الملك علي على اراضيهم حملة شديدة عام ١٤٨٣ انتهت بانحسار الوثنية مؤقتاً .

ولما مات الملك علي عام ١٤٩٢ لم يدافع العلماء عن بقاء ولده «بكر» في الحكم وكان هذا ضعيفاً فاشلاً ، فأيد العلماء محمد توري Touré

---

(١) « سوني » بلغة السوناي تعني الملك أما بير فهي تحريف للكلمة العربية « كبير » .

أحد قواد الملك علي ، ورفعوه الى العرش باسم الاسكيا محمد [1] عام ١٤٩٣ .

الملك محمد الحاج (ويعرف في التاريخ باسم : أسكيا محمد) (١٤٩٣ - ١٥٢٩ م)

افتتح الملك محمد عهده بحروب توسعية كثيرة في مختلف الأنحاء : اقتطع بعض الولايات من مالي وهزم قبائل البوهل الوثنيين في الفوتاتورو [2] ثم تحول شرقاً الى أغادس (في جمهورية النيجر) ففرض على سلطانها الجزية ثم أخضع بعض القبائل الثائرة في منطقة « الدندي » شمال الداهومي بزعامة بكر بن الملك الراحل علي ، ثم بسط نفوذه على بعض الممالك في شمال نيجيريا .

وبذلك امتدت المملكة من صحراء النيجر « وأهير » « Air » شرقاً الى حوض السنغال غرباً ، ومن سيغو على النيجر جنوباً الى الصحراء الجزائرية شمالا . وقد انتهج السلطان محمد سياسة اسلامية تمثلت في تشجيعه للثقافة العربية وفي مساعدة العلماء والفقهاء ، فجعل من

---

(١) اسكيا تعني بلغة التاماشك ، احدى لهجات الطوارق ، العبد الصغير ، لأن الملك محمداً كان مملوكا للسلطان علي ، وربما كان هناك تفسير آخر للكلمة لأن ملوك غاو قد اتخذوها لقباً لهم ، « تاريخ افريقيا الغربية الفرنسية » .

(٢) الفوتاتورو « Fouta Toro » سلسلة هضاب في السنغال كانت سكناً لقبائل البوهل Pouhl الوثنية التي تغلغل الاسلام بين افرادها في القرن السابع عشر ومن ثم حملت راية الاسلام والدعوة في افريقيا الغربية .

غاؤ وطو مبوكتو ووالاتا وجنه مراكز تعج بالطلاب والمدارس (١).

وقد أدى الملك المذكور فريضة الحج عام ١٤٩٧ وبذل في ذلك كثيراً من الأموال ، فذكر الناس بالملك موسى الأول صاحب مالي. وقد اشترى في المدينة ومكة اوقافاً جعلها لنزول الحجاج السودانيين وقد بلغ ثمنها نحو ٣٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية ، كما أنه دفع نحو ١٠٠,٠٠٠ مثلها الى فقراء الاراضي المقدسة . ولما عاد الملك من الحج قابل الخليفة العباسي في القاهرة وطلب اليه أن يسافر معه ليتولى حكم السودان، ولكن الخليفة أقره على السودان بلقب خليفة وقد تدم له محمد الحاج كثيراً من الهدايا (٢).

ولما وصل الى بلاده اختط لنفسه سياسة ترمي الى نشر الدين الاسلامي عن طريق الجهاد المقدس بين القبائل المجاورة للملكة . وقد أسر خلال معاركه عدداً كبيراً من الأطفال الوثنيين اعتنقوا الاسلام في كنفه وأصبحوا جنوده ، وبذلك كان لغاؤ جيش نظامي دائم يعتمد عليه في الخطوب .

تنظيمات الملك محمد واصلاحاته

قسم الملك محمد مملكته الى أربع ولايات جعل على كل منها والياً هو في الوقت نفسه قائد الجيش في المقاطعة، وقد ثبت بعض النظم الخاصة بالضرائب ، وكان جهاز الأمن قوياً في مملكته وقد استحدث مراكب

---

(٢) سيرد ذكر بعض هذه البلدان

(٣) تاريخ افريقيا : جان كنال .

قبر السلطان محمد في غاؤ (مالي)

للحرس في نهر النيجر . واستحدث هذا الملك أيضاً مجلساً للعائلة المالكة منحه سلطات تنفيذية هامة.

وفي المجال الاقتصادي كان للملك محمد مشاريع تعود على البلاد بالثروة والازدهار ،فقد عمل على حفر القنوات على شواطىء النيجر لزيادة الأراضي المزرعة وأوجد الأوزان والمكاييل الموحدة . وقد ساعد استيلاؤه على ممالح تغازا (في الصحراء المراكشية الى الجنوب الشرقي من مراكش) على خلق نشاط تجاري واسع، فتمتعت البلاد برخاء عظيم مما جذب اليها كثيراً من تجار طرابلس وفاس وتلمسان.

أما في ميدان الثقافة فقد استقدم العلماء والأطباء وساعد الدعاة على نشر الدين (١) وأقام كثير من هؤلاء العلماء في غاؤ وجنه وطومبوكتو فكانت اللغة العربية لغة البلاد الرسمية وكان وجود هؤلاء المثقفين العرب نواة لنهضة ثقافية شملت البلاد في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ان هذه الأعمال التي قام بها الملك محمد قد تركت في شعبه أثراً طيبا ولا يزال قبره الى اليوم في غاؤ ، مزاراً يحج اليه المعجبون.

دور الضعف

فتح تنازل الملك محمد عن الحكم لابنه موسى عام ١٥٢٩،بسبب شيخوخته ، الباب امام مشاكل جديدة تبدت في النزاع الدموي بين أفراد العائلة المالكة ، بالاضافة الى أن حدود البلاد الشاسعة قد سهلت

---

(١) وقد استقدم لهذه الغاية العالم الفقيه عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني . انظر : الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء لفيليب فونداسي - باريز عام ١٩٥١

على اعداء المملكة من الوثنيين التسرب الى داخـــل المملكة ، كما أن الحروب الطاحنة قـــد عرقلت النشاط التجاري فركدت الفعالية الاقتصادية .

ولما مات الملك محمد عام ١٥٣٨ أسفر ابناؤه القناع عن أهدافهم فحاربوا أخاهم البكر موسى ،وقد أدت حروبهـم الى اضعاف البلاد . وقد أثر عن خلفائه من ولده أنهم كانوا يبددون ثروة البلاد ، وانهم يعلنون الحروب لنزوات بسيطة تافهة ، وقد شاء حظ هذه المملكة ان تعاني كل ذلك حتى جاء الملك داود (١٥٤٩ - ١٥٨٢)فتمتعت البلاد بشيء من الاستقرار .

مملكة غاو في دور الانحطاط : التوسع المراكشي

في مطلع القرن السادس عشر ظهرت في مراكش دولة الاشراف السعديين الذين تولوا ،منذ استيلائهم على الحكم ،انقاذ بلادهم من التغلغل التركي والاحتلال الاسباني والبرتغالي (١) ولما تم لهم ذلك قام أحد ملوكهم،وهوالمنصور السعدي المعروف بأحمدالذهبي ، بحملات الى الجنوب من بلاده يدفعه الى ذلك الرغبـــة في نشر الدين الاسلامي في افريقيا الغربية .

وقد أرسل السلطان الذهبي لهذه الغاية جيشاً من المرتزقة مـن الاسبان المسلمين المطرودين من الأندلس مؤلفا من اربعة آلاف مقاتل بقيادة الباشا جدير . بدأ الجيش زحفه باحتلال مملح « تغازا » عـــام

(٢) الادب المغربي : ابن تاويت والعفيفي .

١٥٨٥ ثم تابع سيره بعد مدة الى طومبو كتو[1] فوصل اليها عام ١٥٩١. دخل الجيش المدينة يحمل اليها الأسى والخراب مزوداً بالأسلحة النارية التي أوقعت في نفوس الافريقيين الخوف والهلع، فقد فر جيشهم المؤلف من ثلاثين الف مقاتل عندما سمع افراده بما حدث لهذه

(١) تقع مدينة طومبو كتو (بالتاء والواو) على حافة الصحراء على بعد قليل من نهر النيجر الى الشمال. يعود تاريخ المدينة الى القرن الثاني عشر في المكان الذي كان يرتاده الطوارق في فصل الجفاف لتوفر المياه العذبة فيه. وتروي الاساطير المحلية ان الطوارق تركوا في احدى المرات، امرأة منهم اسمها بو كتو Bocto لتقوم بحراسة البئر. وبعد مضي مدة من الزمن اصبح المكان يدعى Tin Bocto اي مكان بو كتو. ثم تحول الاسم في اللفظ الدارج الى Tombouctou. وقد بدأت اهمية هذه المدينة عندما اصبحت محطة نهائية للقوافل القادمة من الشمال او القادمة من الجنوب عن طريق النيجر، وبفضل ذلك تطورت سريعاً فأصبحت مركزاً تجارياً وثقافياً. كما غدت مطمعاً للغزاة من الطوارق والسونراي والمراكشيين.

لقد زارها ليون الافريقي في القرن السادس عشر فقال:

ان بيوتها مبنية باللبن «الطين المجفف» المغطاة بسقوف من القش، وكان فيها بيتان مبنيان بالحجارة بناهما المهندس الشاعر ابراهيم الساحلي «انظر السلطان موسى صاحب مالي». وفي المدينة كثير من الحوانيت يشغلها التجار والصناع، اما النساء فقد كن سافرات اما النساء النبيلات فهن محجبات. تصلها البضائع الاوربية من شمال افريقية، في اسواقها المواشي والحبوب. اما الملح فقد كان باهظ الثمن لندرته. وكانت الحياة الثقافية نامية جداً في طومبو كتو لان حب العلم قد انتقل الى الافريقيين من العرب الذين نزلوا بمدينتهم وكانوا يقبلون على شراء الكتب العربية ويدفعون لاصحابها من شمال افريقيا اثماناً مرتفعة. وقد كانت طومبو كتو تشكل مركزاً لولاية يقيم بها الحاكم الذي كان يطوف يومياً بالمدينة. وبها مسجدان عظيمان هما «جانكوبر» و «سانكوري» وكانا جامعتين اسلاميتين تشعان في كل افريقيا الغربية وقد بقيت المدينة نحو قرن تحت سلطة الطوارق الى ان احتلها الفرنسيون عام ١٨٩٤. اما ميناء كباره Kabara فهو ميناء طومبو كتو على النيجر وهو مستودع عظيم للبضائع الواردة والصادرة وهي تبعد عن طومبو كتو نحو خمسة عشر كيلو متراً.

المدينة فلم تنفع أفيالهم التي يركبون عليها ولا السهام والحراب التي يقاتلون بها على انغام الطبول في رد المراكشيين (١) .

وقد تعرضت مدينة طومبوكتو الى غزوات متتابعة ذبح الناس فيها ذبح النعاج وقتلوا في الشوارع بينما حوصر العلماء في المساجد. وقد ذكر عبد الرحمن السعدي (٢) قائمة بأسماء العلماء الذين قتلوا في هذا الحصار وسيق من تبقى منهم أسرى الى مراكش ومنهم العالم الفقيه أحمد مويا، ومحمد الأمين ، والمؤرخ أحمد بابا (٣)

وقد فرض قائد الحملة جدير على سكان المدينة ضرائب باهظة ، عليهم أن يؤدوها في مدة معينة قصيرة ، والا تعرضوا لأقسى أنواع القتل ، وكان سلطان مراكش يتلقى كل عام مئة ألف مثقال ذهبي من تلك الضرائب .

وكان وصول المراكشيين الى غاؤ عام ١٥٩٢ - ١٥٩٣ ، وقد سبقتهم اليها أعمالهم الوحشية ففتحت لهم المدينة أبوابها خوفاً وهلعاً (٤)

---

(١) لما حصل الافريقيون على الاسلحة النارية لم يستفيدوا منها لسوء صنعها ولعدم خبرتهم بها فكانت وبالا عليهم وهي في حوزتهم. وقد اتبع الافريقيون بعض الوسائل البدائية في الدفاع ، فقد جعلوا في مقدمة جيشهم الثيران لتكون درعاً يقيهم نار البنادق ، الا أن صوت الطلقات ، قد اثار الذعر بين هذه البهائم فولت الادبار وأشاعت الفوضى في صفوف الجيش الافريقي وقتلت الكثير من افراده .

(٢) انتا ديوب : تاريخ افريقيا قبل الاستعمار .

(٣) ستَرد تراجم بعضهم في فصل الحياة الفكرية .

(٤) قال الشاعر ابو الحسن الشياظمي يمدح المنصور السعدي ذاكراً الاسلحة التي استعملها المراكشيون :

مدافع ابطلت للسود حكمتها ... فلم يفد معها نفث وتعقيد

وقال الشاعر محمد الفشتالي بهذه المناسبة :

وطويت في السودان مملكة لها ... بين المشارق والمغارب مجثم

فأصابها ما أصاب طومبوكتو . ولم يجد الافريقيون بـــدأ مـــن التكتل بقيادة السلاطين ، فلما قتل اسحاق الثاني في معركة احتـــلال غاؤ خلفه في المقاومة السلطان نوح الذي تحصن في منطقـة دندي الى الجنوب من غاؤ.

يبدو لنا من مناقشة هذه الاعمال التي قام بها الأوربيون باسم السلطان المراكشي، ان هـــؤلاء الأفاقين المغامرين كانوا يخفون مطامعهم وشهواتهم الاستعمارية للثروة والذهب تحت قناع الاسلام ،بهذا وحده نستطيع ان نفهم مايرمي اليه المؤرخون الاوربيون في اطنابهم في ذكر المجازر الوحشية التي اقترفها المرتزقة الاسبان ،انغرضهم الوحيد تشويه الصلة بين العرب وافريقيا .

ولم يستطع هؤلاء المرتزقة سحق المقاومة الافريقية لانـه كان ينقصهم التضامن والنظام في بيئة لايعرفونها ، يتنازعون فيما بينهم على ثرواتها.وجرت المعارك واجتاحت المنطقة خلال السنوات ١٥٩٤ -١٦٠٥ مجاعات رهيبة هلك فيهـــا الكثيرون. وانتشر الطاعون في طومبوكتو فقضى على نصف السكان ، وقد خربت الحروب كل اثر حضــــاري وثقافي .

وفي مطلع القرن السابع عشر دخـــل المراكشيون مدينـــة

« جنه »[1] صلحاً على أن سكانها كانوا يدفعون كل عام أتاوات ضخمة ، وذلك ليجنبوا مدينتهم الخراب والدمار . الا أن المدينة دمرت فيما بعد عندما رفضت دفع الجزية . وفي عام ١٦١٢ انفرد حكام طومبوكتو بالبلاد وقطعوا الضرائب عن سلطان مراكش ولم يلبث الجنود المراكشيون أن امتزجوا بالسكان وذابو بينهم وعاشوا معاً حتى عام ١٧٦٠ عندما استرد الطوارق المدينة وازالوا عنها سلطة المراكشيين .

على أن سقوط غاؤ قد أدى الى نتائج أخرى اقتصادية وسياسية . فقد انحطت التجارة بنتيجة الحروب فلم يصل الى طومبوكتو خلال

---

(١) تقع مدينة « جنه » الى الجنوب من طومبوكتو على نهر باني رافد النيجر، وهي معاصرة في تاريخها لمدينة طومبوكتو ، ظهر أمرها في القرن الثاني عشر وهي مركز تجاري هام . كانت تتجمع فيه تجارة النيجر . وقد احسن سكان المدينة استقبال العلماء المسلمين الذين قدموا اليها في القرن الثالث عشر . وقد بنى حاكم المدينة في القرن الرابع عشر مسجداً على الطراز المغربي يعتبر من اشهر مساجد المنطقة وقد صممه المهندس ادريس المراكشي وقد امتزج في هذا المسجد الفن العربي السوداني ذي المآذن المخروطية والمضلعة . (انظر صورة المسجد في الحياة العمرانية)

وتقع مدينة جنه في سهل فسيح من المستنقعات كان حصناً دفاعياً لها ضد الهجمات الاجنبية . وقد قتل كثير من اهل جنة في المجاعات والامراض التي حدثت في مطلع القرن السابع عشر ، ولما احتل الفرنسيون جنه عام ١٨٩٣ وجدوا بها كثيراً من المدارس التي تعلم العربية كما وجدوا مثلها في طومبوكتو ، إلا أنهم اغلقوا هذه المدارس عام ١٩١٣ لانها كانت مركزاً للوطنيين الذين يكافحون الاستعمار ، كما وجد الفرنسيون كثيراً من المكتبات العامرة .

« انظر طومبوكتو وجنه في تاريخ افريقيا الغربية الفرنسية» .

القرن السابع عشر الا عدد قليل من القوافل ، وكان انحطاط السيادة الافريقية فرصة لظهور عدد كبير من الأمارات الافريقية الصغيرة، بينما تلقت الحضارة الافريقية ضربة شديدة .

في ذلك القرن قدمت الى موريتانيا موجة عربية اسلامية تتمثل في قبائل بني حسان التي جاءت من مراكش، وقد وصلت الى السنغال وساهمت في نشر الاسلام بين القبائل الوثنية،على أن بعض القبائل الوثنية استعصت على الدين الجديد ، وهاجمت المسلمين هجوماً عنيفاً، بينما بدأ الاوربيون على سواحل افريقيا الغربية منذ مطلع القرن الثامن عشر باقامة مراكز لهم كانت نقاط انطلاق للاستعمار .

ان هذا الوضع الجديد قـــد دعا كثيراً من الزعماء المسلمين الى الاتحاد لصد العدوان الجديد ، وللقضاء على الوثنية (١). وقد آتت نتائج هـــذا الاتحـــاد أكلها في مطلع القرن التاسع عشر ، الا أن عوامل أخرى صنعها الاستعمار قد قضت على الوحـــدة الافريقية المأمولة التي كان يسعى اليها كل من الحاج عمر ، وساموري توري وغيرهما .

---

(١) سيكون للمؤلف كتاب آخر، يبحث عن الأديان في افريقيا الغربية وعن تأثير الاسلام في وحدة النضال الافريقية ضد الاستعمار .

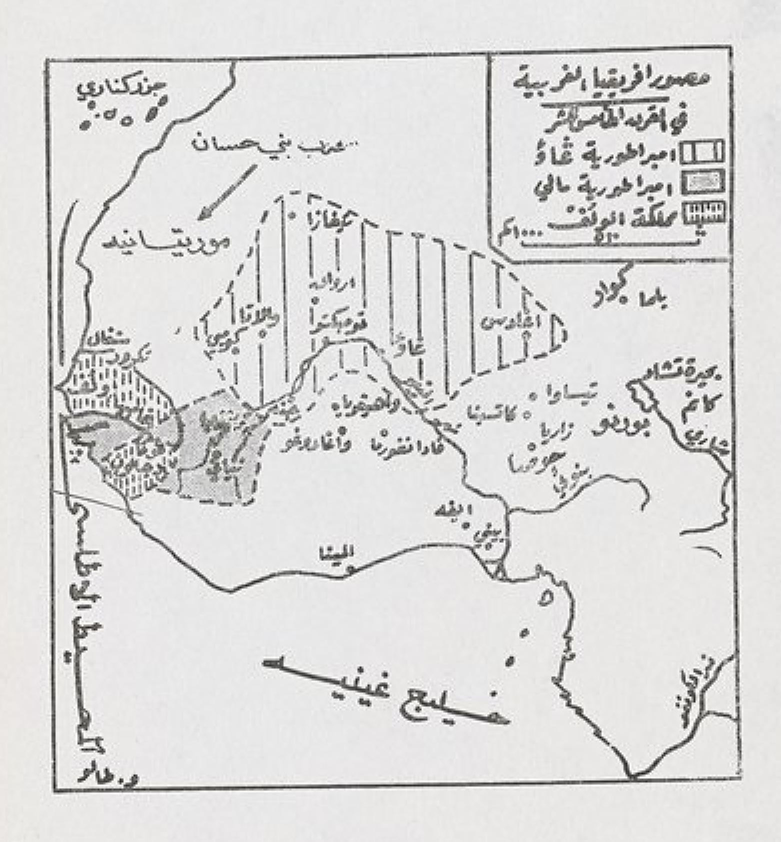
الممالك الاسلامية في نيجيريا وتشاد

الهاوسا في نيجيريا.

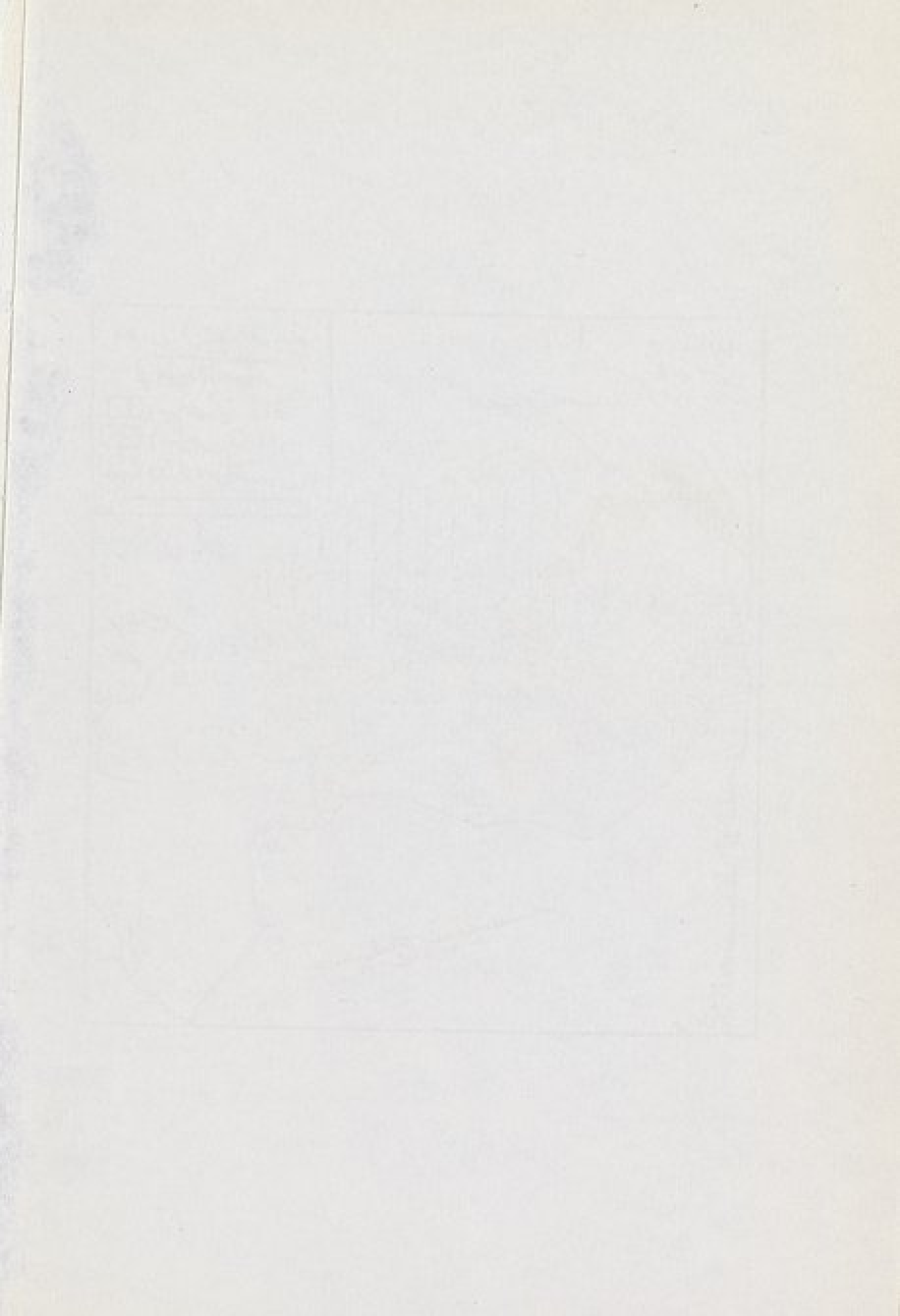
سجل القرن الرابع عشر ظهور عدد من الامارات الافريقية في الأنحاء الجنوبية من افريقيا الغربية كانت تقوم على التجمع القبلي أوالديني :الاسلامي والوثني. وقد دخلت هذه الامارات في منازعات مريرة لأنها لم تكن ذات حواجز طبيعية تقيها الغزوات، و كان العامل الديني يجمع الامارات في مملكة واحدة كما حدث لأمارات الهاوسا Haoussa في نيجيريا الشمالية .

والهاوسا قبيلة كبيرة كانت تعيش فيما نسميه الآن نيجيريا الشمالية والقسم الجنوبي من جمهورية النيجر أتاها الاسلام خلال القرن الحادي عشر ومابعده عن طريقين : الأول شرقي عن طريق تشاد والثاني غربي عن طريق الممالك الاسلامية والتجار من غرب افريقيا.

لعبت الهاوسا الاسلامية دوراً هاماً في تاريخ نيجيريا فألفت عدة أمارات حول بعض المدن بين الحوض الأدنى للنيجر وبحيرة تشاد . وأشهر هذه الأمارات التي وحد الاسلام بينها من الغرب الى الشرق



مصير افريقيا الغربية
في القرن الخامس عشر
امبراطورية غانا
امبراطورية مالي
مملكة الولف
عرب بني حسان
موريتانيا
تغازا
ولاتة
غانا
بحيرة تشاد
كانم
برنو
تمبكتو
خليج غينيا
المينا



كبي Kebbi وسوكوتو Sokoto وكاتسينا Katsina وكانو Kano في الوسط ثم زاريا في الشرق [1] وكانت شعوب الهاوسا [2] على شيء من الرقي في الزراعة والصناعة . ولما تغلغل الاسلام في المنطقة استطاعت بعض الأسر الاسلامية أن تحكم مدينة كانو بزعامة محمد رومفه عام ١٣٥٢ [3] ثم ضموا اليهم مدينة كبي عام ١٥٥٠ التي كانت على علاقات وثيقة مع السلطان محمد صاحب غاؤ وكانت حليفة له في حروبه ضد سلطان أغادس في صحراء النيجر .

وبعد أن توحد أمر المسلمين في الشمال شنوا حرب الجهاد باتجاه الجنوب الوثني ، وقد وصلت المرأة في مملكة الهاوسا الى قسط كبير من الرقي والسلطة ، فقد حكمت مملكة كانو في القرن الخامس عشر، السلطانة أمينة وكانت لها شهرة كبيرة [4] .

وكانت ثروة المملكة مطمعاً للدول المجاورة في تشاد وللسونغاي في غاؤ ، ولما سقطت غاؤ عام ١٥٩١ تمتعت الهاوسا بالهدوء والاستقلال الا أن المسلمين في تشاد كانوا يقتطعون أقساماً من أراضي الهاوسا الشرقية وقد ضاع كثير من المصادر المحلية التي ألفت بالعربية في تاريخ الهاوسا خلال تلك الحروب .

وفي بداية القرن التاسع عشر وصلت الى نيجيريا موجة اسلامية

(١) تاريخ افريقيا الغربية : باري وجونه .
(٢) تاريخ افريقيا لأندريه جوليان « بالفرنسية » .
(٣) مجلة المجلة العدد ٤٧ لعام ١٩٦٠ مقال بقلم الدكتور عبد الرحمن زكي .
(٤) تاريخ افريقيا : جوليان .

افريقية قادمة من غرب افريقيا تمثلت في الهجرة الجماعية لقبائل البوهل Peuhl [1] ويسميهم بعض المؤرخين بالفولا أو الفولاني أو التوكولور، ولما عظم أمرهم وكثر عددهم سيطروا على البلاد بشجاعتهم وحماسهم للدين وللدعوة اليه.

الدعوة الى الاسلام في نيجيريا
ودور عثمان دان فوديو

قام زعيم البوهل «عثمان دان فوديو» عام ١٨٠١ بالدعوة للجهاد ولقطع دابر الرقيق. وقد عاد من الحج متحمسا لفكرة توحيد

---

(١) كانت قبائل البوهل تسكن في الفوتاتورو. في السنغال، وكانوا يشكلون في القرن الرابع عشر والخامس عشر حاجزاً وثنياً ضد تقدم الاسلام، ولكنهم لما اعتنقوا الدين الجديد في القرن السابع عشر غدوا متحمسين لنشره حاملين لواء الدعوة اليه. وقد قاموا بحركة اجتماعية دينية وسياسية وثقافية هدفها نشر الاسلام والقضاء على الرقيق وتوحيد البلاد في ظل خلافة اسلامية ثم العمل على نشر الثقافة العربية الاسلامية. وقد توجهوا من اجل ذلك الى نيجيريا في الشرق والى الفوتادجالون في الجنوب «جمهورية غينيا» وقد انشأ البوهل في عام ١٧٢٠ في الفوتا تسع امارات اسلامية تديرها النخبة المثقفة التي اضحت اقطاعية محاربة يحكم كلا منها إمام منتخب لمدة سنتين دوريا بين عائلتي سوري Sory والفا Alfa . وقد ساد مثل هذا النظام في موطنهم الاصلي، في السنغال، حيث قضوا على الوثنية هناك عام ١٧٧٦ . كما تمكن البوهل ان يؤسسوا مملكة بين النيجر والسنغال، عرفت باسم مملكة ماسينا Macina في اواخر القرن الثامن عشر، وقد اشتهر من ملوكها «حمد باري» الذي سيطر على طومبوكتو وجنه وبنى عاصمة جديدة عرفت باسم «حمد الله» وقد استمر امر هذه المملكة حتى ضمها السلطان احمد بن الحاج عمر الى مملكته عام ١٨٦٢ . اما عثمان دان فوديو، زعيم البوهل في نيجيريا، فقد ولد بالسنغال، ولاتزال اسرته تحتفظ بالامارة على سوكوتو في نيجيريا الشمالية، من هذه الاسرة الحاج احمد بللو رئيس وزراء نيجيريا الشمالية حالياً .

المسلمين والوقوف في وجه الاستعمار وتحصن بمدينة سوكوتـو ولقب نفسه أمير المؤمنين ،وفي الوقت نفسه ، ضم الى ملكه حتى عام ١٨٠٨ أربع عشرة امارة من الهاوسا .ثم قصد الجنـوب الوثني [١] فأسس هناك مراكز اسلامية في ايللورين ولوقـوغا وساراكي ترك فيها عدداً من الدعاة ، كما وجه بعض أتباعه الى الكاميرون الشمالي ، وقد استطاع هؤلاء أن يشكلوا هناك مملكة آداماوا الاسلاميـة عام ١٨٢٦ ، ثم كلف عثمان أخاه عبد الله باسترداد بعض الأراضي من مملكة تشاد . [٢]

قسم عثمان مملكته الى ولايات جعل عليهـا أقرباءه وأتباعـه ، ولماما مات عام ١٨٤٣ خلفه ولده محمد بللو ، وكان هذا عالماً أديباً قرض الشعر بالعربية وألف بها[٣].وكانت سوكوتو في عهده مركزاً اسلاميا ثقافيا وفد اليها كثير من العلماء . وكان يتبع في نظام الحكم نصوص القرآن والشريعة،فعم العدل وساد الأمن [٤] ، غير أن عهده الطويل

---

(١) مجلة المجلة : العدد ٤٧ لعام ١٩٦٠ . مقـال عن جمهورية نيجيريا بقلم الدكتور عبد الرحمن زكي .

(٢) يقول توماس آرنولد : ان عثمان دان فوديو قد حاول ان يطبق المبادىء الوهابية التي تلقنها في الحج ، فى سياسته الاسلامية « الدعوة الى الاسـلام » الفصل المتعلق بافريقيا الغربية .

(٣) تاريخ افريقيا الغربية وتاريخ كانال وامبراطورية غاؤ للمؤلفين : Hama و Boulnois باريز عام ١٩٥٤ .

(٤) المجلة العدد ٤٧ .

لم يسلم من المشاكل الداخلية التي ظهرت في التنازع على السلطة .
وقد تدهورت الدولة بعد موته عام ١٨٥٥ وثار سكان البلاد على حلفائه لأنهم كانوا غرباء عن البلاد ، وقد استمرت الاضطرابات في الشمال طيلة نصف قرن بينما كان المستعمرون الانكليز يتوغلون في البلاد من الجنوب ، ثم ألحقت نيجيريا بالتاج عام ١٨٩٠ .

الاسلام في تشاد

مملكة كانم «Kanem» وبورنو «Bornou» .

سكنت المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد عناصر زنجية اختلطت على مر العصور بالطوارق والعرب والشعوب القادمة من غرب افريقيا [١] . وقد وصل الاسلام الى تلك البقاع في القرن الحادي عشر عن طريق السودان العربي وعن طريق فزان بليبيا ، ثم تأثرت البلاد بموجة قبائل البوهل . وقد انحسرت الوثنية نتيجة لذلك في الجزء الجنوبي الشرقي من البلاد .

كان مجيء الاسلام حافزاً على توحيد القبائل تحت سيادة مملكة الكانم ببورنو حول بحيرة تشاد . وقد تربعت على عرش البلاد أسرة اسلامية في القرن الثاني عشر ، ووصلت حدود هذه المملكة في القرن التالي الى الصحراء الليبية شمالاً والى كانو غرباً والى «واداي» Ouadaï شرقاً والى « الباغيرمي » Baguirmi جنوبا . وقد اشتهر من ملوكها ادريس الأول (١٣٥٣ — ١٣٧٦) . وفي نهاية القرن الرابع عشر

(١) تاريخ كانال والمصدر السابق .

دب الانحطاط في أمور المملكة وانفصلت المناطق الجنوبية وعرفت باسم مملكة البورنو Bornou .

وقد قدر للبورنو أن تلاقي شيئاً من النشاط عندما استورد ادريس الثالث (١٥٧١ — ١٦٠٣) الأسلحة عن طريق طرابلس [1] فأعاد للبلاد اراضيها المسلوبة وهيبتها . غير أن خلفاءه الضعاف لم يتمكنوا من الاحتفاظ بسيادتهم فاستقلت الواداي (شرق تشاد وغرب السودان) عام ١٦٣٥ بينما نشأت في الجنوب الشرقي من البحيرة مملكة الباغيرمي Baguirmi .

ولم يستطع السلطان علي بن عمر ، في آخر القرن السابع عشر ، أن يقف أمام هجمات قبائل البوهل فترك البلاد ، وعندئذ قام شيخ من أصل عربي ، من فزان ، يدعى محمد الأمين الكانمي ، بتوحيد الجهود لتخليص البلاد من الغزاة وحث الناس على التمسك بأهداب الدين وصيانة الأخلاق واستطاع أن يعيد السلطة للملك الهارب.

وبعد وفاته عام ١٨٣٥ سادت الفوضى في البلاد زمن السطان ابراهيم (١٨٤٦) ومابعده . وفي نهاية القرن التاسع عشر خضعت البلاد للسلطان رباح القادم من بحر الغزال بسودان الخرطوم ، وكان هذا يقود جيوش المجاهدين ضد الاستعمار الانكليزي والفرنسي ، وبعد مقتله على يد الفرنسيين عام ١٩٠٠ احتل الانكليز

(١) يذكر الدكتور عبد الرحمن زكي ان الامام « احمد بن فرتوه » قد الف بالعربية في عهد ادريس الثالث كتابين عن تاريخ البورنو طبعا عام ١٩٣٠ في كانو بنيجيريا. المجلة العدد ٧٤ .

الجزء الجنوبي الغربي من تشاد بينما ابتلعت فرنسا بقيـــة اجزاء المنطقة [1] .

وقد وقف الباحثون [2] على بعض المعلومات المبعثرة عن الحضارة الاسلامية الافريقية في تلك الأصقاع ، كان تأثير العرب واضحاً من ذلك الاتصال الدائم مع السودان العربي وليبيا، وكانت العاصمة (كوكا) جنوب غرب تشاد (في نيجيريا حالياً) ، مركزاً الجالية عربية كبيرة من التجار والعلماء ، وكان بها حيان : شعبي وارستقراطي ، وقـد تمتعت الارستقراطية الملكية بكثير من البذخ والأبهة . أما نظام الحكم فقد كان وراثياً وفق الشريعة الاسلامية ويعاون الملك مجلس من القواد والنبلاء والاقطاعيين .

وكان جيش البلاد مؤلفاً من (٢٥) ألف مقاتـــل من الرماة والفرسان والمشاة وجلهم من المرتزقة ، ونستطيع ان نفسر النمـــو الاقتصادي للمنطقة بموقعها التجاري بين افريقيا الغربية والشـــرقية وباتصالها بأوربا عن طريق طرابلس الـــتي يفد التجار منها الى تشاد بالأقمشة والاسلحة والمصنوعات الاوربية ويعودون بالجلود والعـــاج وريش النعام والرق .

---

(١) السلطان رباح احد قواد الزبير باشـــا حاكم بحر الغزال ، ولما استدعى الخديوي هذا الحاكم بناء على طلب الانكليز ،تولى القائد رباح مهمة مكافحة الانكليز القادمين من السودان وأوغنده ، ومحاربة الفرنسيين القادمين من الكونغو الفرنسي وتشاد ،وقد انزل بالفرنسيين خسائر كبيرة قبل ان يستشهد في احد المعارك .

(٢) تاريخ افريقيا : لاندريه جوليان .

الممالك الوثنية في خليج غينيا [1]

كان الساحل الجنوبي لافريقيا الغربية ، من ليبريا الى الكاميرون، مهداً لحضارات افريقية خالصة بعيدة عن التأثير الاسلامي القادم من الشمال ،وعن أي تأثير اجنبي آخر ، لأن الغابات الكثيفة في شمال هذه الحضارات كانت تقف في وجـــه اي نفوذ او تغلغـل ، ولأن دول الاسلام كانت مشغولة بالحروب الاهلية مما منعها من توجيه اهتمامها نحو الجنوب . وكان الاستعمار ، الذي هاجم الساحل الجنوبي لأفريقيـا الغربية منـذ القرن الرابع عشر ، هو الذي قضى على تلك الحضارات الناشئة التي نلخصها فيما يلي :

ظهرت في القرن الثالث عشر والرابـــع عشر مملكة اليوروبا Yorouba الوثنية بين النيجر الادنى ورافـــده البينويه Bénoué في نيجيريا الجنوبيـــة . وقد بينت الحفريات التي اجرتها بعثة المانيـة في

(١) لايدخل هذا البحث في المخطط العام وقد اضفناه لتكملة المعلومات .

ضواحي مدينة ايفه Ife المقدسة (شمال شرق لاغوس) ان حضارة متطورة قد ازدهرت في تلك المنطقة تحتاج الى كثير من الدراسة. استعملت هذه المملكة البرونز في نحت التماثيل الرأسية التي كانت تزين القصور، على ان الفن الافريقي والثقافة الافريقية قد تجليا واضحين في مملكة البنين Benin جنوب غرب نيجيريا بين شعوب الايدو Edo خلال القرن السادس عشر والسابع عشر [١]. وكان ملك البلاد هنالك طاغية ليس لسلطته حدود وتدل بعض المعلومات على أن المرأة قد ساهمت في النشاط الحكومي. وقد ذكر أن قصر الملك كان مغطى بأوراق النخيل ويقوم على اعمدة خشبية علقت عليها التماثيل. ويستدل من المكتشفات ان الملك كان يحتكر التجارة مع الاجانب (الاوربيون القادمون الى الساحل) كما ان الديانة تقوم على تقديم القرابين البشرية [٢].

اما اذا اتجهنا غرباً فاننا نجد في الداهومي عدداً من الممالك الوثنية ازدهر امرها في القرن الخامس عشر واشهرها: ممالك آبومي Abomey وويداه Ouidah وبورتونوفو Porto - Novo على الساحل والادا Allada على الحدود النيجيرية [٣]. وقد ظهرت محاولات من ويداه والادا في القرن السابع عشر لتوحيد البلاد ضد الغزاة الأوربيين الذين

---

(١) تاريخ افريقيا لجوليان. (٢) انظر في الديانة الوثنية هناك كتاب: La Religion en Afrique Occidentale للمؤلف Parrinder، باريز ١٩٥٠

(٣) تاريخ جوليان وتاريخ افريقيا الغربية الفرنسية.

تمركزوا على الساحل لشراء الرقيق تمهيداً لاستعمار المنطقة . وفي القرن الثامن عشر أوقد الأوربيون نار الحروب الاهلية بين هذه الممالك ،وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تدخل الانكليز والبرتغاليون والفرنسيون في الشؤون الداخلية للبلاد ، وقد وقع ملك بورتونوفو معاهدة للحماية مع الفرنسيين أتاحت لهم التدخل ضد مملكة آبومي التي آلت على نفسها مقاومة الاستعمار منذ عام ١٨٥١ وقد تركزت المقاومة الوطنية في الامبراطور بهانزان Behanzan الذي تلقى أسلحة ألمانية من التوغو ،الا ان بعض العملاء قد ساعدوا فرنسا في اعمالها لانهاء المقاومة في أول القرن العشرين .

وقد أشارت المكتشفات في جنوب الداهومي الى وجود قصور مزينة بالنقوش والرسوم التي تكرس الانتصارات الملكية والى وجود الضحايا البشرية . ولقد عرف حكام هذه المملكة كيف يسهرون على مملكتهم ويديرون شؤونها [١] .وان عادات الدفن عند ملوك الداهومي هي ذاتها عند جيرانهم ملوك بينين Benin وملوك الأشانتي .

واذا اتجهنا غرباً الى ساحل الذهب (جمهورية غانا حالياً) فاننا نجد هناك مملكة الآشانتي Achanti وعاصمتها كوماسي،وقد وصلت المملكة الى أوجها في اوائل القرن الثامن عشر وشمل نفوذها الممالك الصغيرة التي كانت قائمة في ساحل العاج •وتشتهر الآشانتي بصناعاتها الفنية كالتماثيل الخشبية والاقنعة [٢] .

Les Civilisations Africains : D . Paulme (١ و ٢).

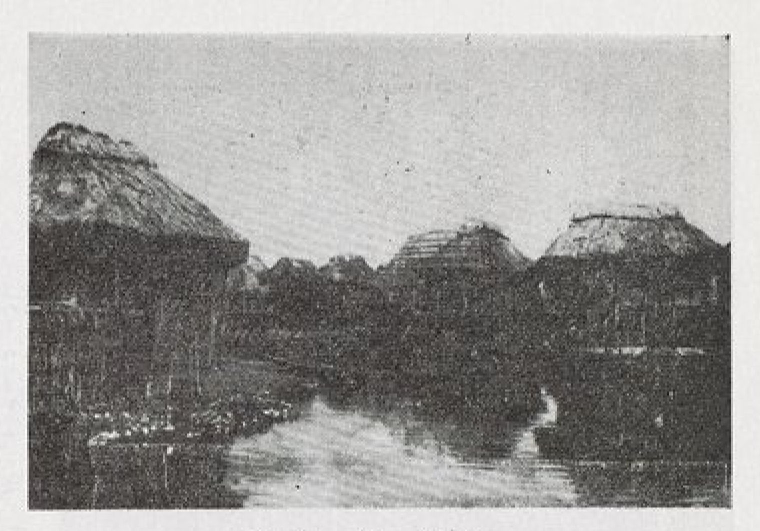
وفي أقصى الغرب نجد جمهورية ليبريا التي أنشأها جماعة من الرقيق المتحررين عام ١٨٤٧ وقد جاؤوا من أمريكا ، وهؤلاء يتكتلون الآن في العاصمة مونروفيا . وفي الشمال من ليبريا نفوذ اسلامي قـادم من الفوتادجالون وقـد ضمنت فرنسا وانكلترا استقلال هـذه الدولة منذ نشأتها [١]



Les Civilisations Africains: D . Paulma (١)



نماذج ذهبية من الفن الوثني (ساحل العاج)



بيوت في احدى قرى الداهومي



نماذج من البيوت الافريقية (الداهومي)

القسم الثالث

الحضارة الافريقية في غرب أفريقيا [1]

الحياة الاجتماعية : المجتمعات القبلية [2]

كان المجتمع الافريقي يعتمد في أول نشأته على الحياة المتعلقة بالصيد والقطف والزراعة . وقد فرض هذا النظام الحياتي على السكان ان يتجمعوا وان يتعاونوا ليضمنوا بقاءهم ، ومن هنا نشأت العشيرة

---

(١) يتضمن هذا الفصل النواحي الحضارية الافريقية مضافاً اليها التأثيرات الاسلامية في تلك النواحي في الدول الافريقية الاسلامية . على انه من الصعب ان تفرق بين ماهو افريقي محض او افريقي متأثر بالاسلام ، لان الدين الحنيف في افريقيا قد تطور وفق العقلية الافريقية وكان هذا احد الاسباب التي ادت الى نجاحه .

(٢) ان البحث في المجتمعات القبلية مستمد في الواقع القبلي الموجود الان في افريقيا الغربية ، وهو واقع غير متطور يشبه ، الى حد بعيد ، الواقع القبلي القديم في الفصل الذي نحن بصدده . انظر في ذلك : تاريخ افريقيا لجان كانال .

التي اخذت اسمها التوتم ، وهو حيوان أو نبات ، جعلته معبودها الخاص ورمزاً لأجدادها ينحدر منه أبناء العشيرة كلهم .

والعمل موزع داخل العشيرة الوثنية القديمة بين الأفراد: يذهب الرجال للصيد ورعي الماشية ، بينما تعمل النسوة في زراعة الأرض الضيقة حول الكوخ ، وللمسنين دور هام في ارشاد الآخرين نظراً لخبراتهم الطويلة. ولقد كانت العشيرة تشكل وحدة اقتصادية كبيرة متكاملة تتألف من وحدات أخرى صغيرة مبعثرة ومتجاورة وهي الأسر . ويتبلور التضامن بين أفراد العشيرة في المسئولية المشتركة وفي الأخذ بالثأر وفي واجب الفرد أمام المجموع . ويبدو هذا التضامن في العبادة العامة للأجداد المؤسسين للديانة الذين يرمزون لها بحيوان أو نبات (شجرة كبيرة) يحرمون أكله . ويفرض النظام العشائري الافريقي على الرجال الذين ينتسبون الى القبائل المتفرعة من العشيرة الواحدة ، أن يتزاوجوا من داخل العشيرة حرصاً على وحدتها .

وتتوزع المجتمعات القبلية ، في افريقيا الغربية ، في الغابات والسهوب والصحاري الشمالية وحول بانديا غارا (الى الجنوب من طومبوكتو) وفي سواحل غينيا وغابات ساحل العاج وأعالي السيراليون وليبريا الشمالية . وكانت التجمعات القبلية تعيش في قرى متقاربة ، في كل قرية اسرة كبيرة ينظم شؤونها مجلس العائلة ، ويعمل الجميع في حقول عامة ثم يقتسمون المحصول فيما بينهم . وان لاسم العشيرة علاقة بأفرادها الذين يمارسون مهنة واحدة وقد أدى ذلك الى نشوء الطبقات المهنية الناتجة

عن توزيع العمل بين مجموعات من الأسر أو القبائل .

وقد بدأ تفتت النظام القبلي تدريجيا بعد دخـــول الاسلام[1] الى تلك البلاد .وتؤكد أقوال البكري وابن بطوطة ذلـك على الرغم من بقاء بعض الرواسب.فقد كان الافريقي يحمل اسمه ثم اسم عائلة أمه أو قبيلتها اذ كان النظام العائلي يقوم على سيطرة الأم ، وقـد اضيف الى كل ذلك فيما بعد الاسم الاسلامي . ولم يكن لأحد أن ينتسب الى طبقة أو عائلة لاتمتهن أسرته مهنتها . وعنـدما تطور الدور الاقتصادي للرجل ،بعد الاسلام، أصبح الفرد ينتسب الى أبيه ويحمـل اسمه . على ان الزواج المختلط كان موجوداً في عهد الوثنية في حالات ضيقة بدليل ان الولد بقي يطلق ، بعد الاسلام ، اسم أبيه على والده وعلى أعمامه (السوسو والهاوسا).ويبدو أن المرأة في المجتمع القبلي كانت تلعب دوراً هاماً الى جانب الرجل ، وقد مارست حريتها قبل الاسلام وبعـــده بأشكال مختلفة وكانت تحتفظ بثروتها وفق قواعد قبيلتها المرعية .

ولاتزال المظاهر القبلية قائمة عند الوثنيين الذين يعيشون على الصيد والرعي في بعض الانحاء التي مر ذكرها. وأراضيهم مشاعية، وقد يمتلك الأفراد قطعان الماشية لمصلحة الجميع .وفي أنظمتهم شيء من العبـودية تبدو في تقسيم القبائل الى قبائل الزعماء وقبائل التابعين .

وقد أدى التطور الاقتصادي الى ظهور الملكية الفردية والاستقرار

---

(١) ان تجارة الرقيق التي مارسها الاوربيون« ص ٥٩ - ٦٠» قد اضعفت التماسك القبلي وقضت على قوة القبيلة .

في بعض الأنحاء التي تتمتع بموقع تجاري أو تمتاز بخصب الأراضي . ثم قاد ذلك مع الزمن الى تنظيم هذه الملكية ، عن طريق سلطة عامة هي الدولة التي تملك القوة الحربية تساندها الطبقة الممتازة . وبهذا نفسر ظهور الممالك في افريقيا الغربية انها جميعاً تجمع قبلي واضح يسانده الدين في بعض الأحيان : مملكة غانه قامت على التكتل الوثني لقبائل الساراكوله Sara Kolles ومملكة مالي قامت على سواعد الماندينغ المسلمين ، بينما ظهرت مملكة غاو بتضامن قبائل السونراي ومملكة « كايور » في السنغال بتجمع الولوف [1] .

وقد أخذت بعض القبائل ، العربية والبربرية ، في الصحراء بالاستقرار بعد دخول الاسلام ، وهؤلاء القوم يتميزون بأصلهم القادم من شمال افريقيا . وبألوانهم السمراء وبلغاتهم البربرية ، والعربية . وهم ينقسمون الى مجموعتين : الطوارق والموريتانيون . أما الموريتانيون [2] فهم خليط من العرب والبربر يسكنون مابين السوس بالمغرب الأقصى ونهر السنغال وبين الصحراء الجزائرية والمحيط الأطلسي ويسمون هناك البيضان ، وهم يشبهون الى حد كبير عرب اليمن والحجاز وأغلبيتهم تحافظ على اللغة العربية ، ولاتزال بعض المظاهر البدوية مسيطرة على حياتهم وتقاليدهم ...

---

(١) تاريخ كانال .

(٢) افريقيا الغربية الفرنسية : ريشار مولار . وانظر موريتانيا الحديثة لمحمد يوسف مقلد .



خيمة موريتانية



فتاة موريتانية

الا أن بعضهم استقر في المدن ، مثل طومبو كتو ونيورو في مالي ودكار وسان لويس في السنغال . ويبلغ مجموعهم نحو ستمائة ألف نسمة.

أما الرحل ، وهم من قبائل الزناقة ، فهؤلاء يعيشون في هضاب الادرار والحوض والعيون (موريتانيا) وبفضلهم انتشر الاسلام في السنغال وأشهر قبائلهم : الترارزة والبراكنة وحسان وهم ينتقلون بمواشيهم نحو الجنوب في فصل الجفاف .

يعيش الموريتانيون من تصدير المواشي . ويتاجرون بالملح والحبوب والصمغ وجوز الكولا (ثمر كالكستناء) وكانت قوافلهم تنقل التجارة من فاس حتى السنغال والنيجر وساحل العاج .

ونجد عند الموريتان كثيراً من الصفات العربية : الكرم والشجاعة والشهامة . وتسود عندهم لهجة متفرعة من العربية الفصحى تسمى اللهجة الحسانية سيطرت منذ القرن السادس عشر بعد وصول قبائل حسان المغربية .

وقد تزعم بنو حسان النضال ضد الفرنسيين في آخر القرن التاسع عشر .

وقاموا أيضاً بدورهم الثقافي فانشأوا في موريتانيا الجنوبية مراكز اسلامية تعتبر بؤرات ثقافية مثل ، « أتار » و « ولاتا » و « نيما » و « تامبيدرا » و « بوتيليميت » .

وتدل المظاهر على أن الموريتانيين يحترمون المرأة ، وهي تتلقى

هناك ، خلافاً للمرأة السوداء ، درجة جيدة من التعليم .

أما الطوارق [1] فهم يعيشون جنوب الجزائر في جبال الأحجار وهضاب الاهير في جمهورية النيجر ، وحول طومبوكتو وغاو في جمهورية مالي . ويبلغ مقدارهم أكثر من ٥٠٠ ألف نسمة. وزعيم القبيلة عندهم منتخب .

تقوم حياه هؤلاء على تربية المواشي وزراعة البلح والحبوب وزراعة الأرز في الواحات ، ويتعاطى قسم منهم التجارة وقيادة القوافل ، وهم الذين تولوا ذلك خلال القرون الوسطى . ولا يزال بعضهم من القبائل الرحل التي تسكن الخيام . والحضر منهم يسكنون في بيوت نصف مستديرة مغطاة بسقوف من سعف النخيل ، وقد مر ابن بطوطة باحدى مدنهم « تاكدا » الى الشرق من غاو وقابل سلطانها .

وقد لعبت المرأة دوراً هاماً ، وهي موضع احترام الرجل ، ولذا يندر تعدد الزوجات عند الطوارق ، والطارقية سافرة دائماً . ويحارب الطوارق ملثمين ، وقد لاقى الفرنسيون منهم الأمرين بأسلحتهم المؤلفة من السيوف والخناجر والرماح ، لغتهم فرع من البربرية تعرف باسم التاماشك وهي غير مكتوبة .

---

(١) R. Mollard مولار : افريقيا الغربية الفرنسية ، و Les Touaregs du Hoggar للمؤلف : Lhote .

طبقات المجتمع في غرب افريقيا

كان المجتمع [1] في افريقيا الغربية ينقسم الى طبقتين رئيسيتين متميزتين: تضم الأولى الارستقراطية الملكية والحاشية والنبلاء والقواد وأضرابهم، وتتألف الطبقة الثانية من عامة الشعب بمختلف فئاته.

وتمارس الطبقة الأولى سلطة كبيرة بسبب استلامها القيادة وتملكها للقوة، ففرضت على الطبقة الثانية أنواعاً من السخرة، وقد احتكرت هذه الطبقة التجارة، وانفردت بأحياء خاصة في المدن. وتقوم هذه الارستقراطية على نبل الأصل أو على الشجاعة في الحرب [2] أو على العمل في حاشية السلطان.

ولقد ساعدت التطورات الاجتماعية والاقتصادية بعض أبناء الطبقة الثانية، فشكلوا طبقة ثرية تتألف من كبار التجار ومن أصحاب

---

(١) ديوب وكانال Diop , Canale . ويمكن القول ان الحياة الاجتماعية في افريقيا الغربية لم تتطور في خطوطها الكبرى الاساسية، منذ القرون الوسطى وهي الآن تخلو من اشكال العبودية القديمة، وتتميز المدن الافريقية اليوم بكثير من مظاهر الديموقراطية.

(٢) ينتخب الزعيم عادة من بين الاقوياء الشجعان ليكون جديراً بمسؤولية توجيه العشيرة.

الحرف الذين يعتمد عليهم المجتمع ومن رجال الدين الذين يلاقون كل احترام وتبجيل . وقد قاد المثقفون من رجال الدين الحركات السياسية الدينية في نيجيريا وفي وادي النيجر وفي الفوتادجالون وعرف هؤلاء باسم الأئمة وقد تمتعوا بمميزات الملوك .

وكان للتقدم الهام في الصناعات البسيطة وفي التجارة أثر في نشوء طبقات مختلفة منها طبقة الديولا Dioula من التجار وطبقة الحدادين والدباغين والصيادين .

ويأتي في مقدمة الطبقة الثانية الجيش والفلاحون ، والصناع وصغار التجار والأسرى والرقيق [1]. وكان بعض انواع الرقيق يتمتعون بحرية خاصة : فقد كان عدد من القبائل ملكاً لسلطان غاؤ الا ان القبيلة تقيم في ارض تفلحها وفق نظام المقاسمة مع السلطان وتنتقل هذه القبيلة من حوزة ملك الى آخر ، فقد ربح السلطان محمد الحاج صاحب غاؤ من انتصاره على أحد الأمراء ، أربعا وعشرين قبيلة كانت من قبل تابعة لمملكة مالي .

وقد جرت العادة أن يستأذن الفرد من هذه القبائل الأمير أو السلطان ، قبل أن يتزوج ، على أن السيد في هذه الحالة يدفع تكاليف الزواج ليستملك الأولاد .

ويستطيع صاحب هذه القبائل أن يفرض على قبائله التي تعمل في أرضه ، أوفي أراضيها ، أن تقدم نوعاً من المحاصيل لتغذية الجند لمدد

---

(١) Diop .

معينة وفقاً للتقديرات التي يجريها مبعوث السلطان . وقـد دفعت بعض القبائل التزاماتها سمكاً مجففاً أو زوارق .

وكان الجيش في غاؤ من الرقيق ويعتبر الجنـــود وأولادهم ملكاً للسلطان بالتوارث . وقد أوجد الاسلام نظام تحرير الرقيق المعروف : فقد يشتغل بعض الأفراد عند السيد مدة من الزمن يصبحون بعدهـا أحراراً . وقد طبقت شريعة المكاتبة في كثير من الأحيان . ومن جهة أخرى شن رجال الدين المسلمون حملة شعواء على الرقيق والعاملين له وحاربوه بكل وسيلة ، ولذا دخل عدد كبيرمن الافريقيين في الاسلام لأنه يساوي بين الجميع ،على انه اذا قورن نظام الرقيق الافريقي بمثيـله في أوربا ، في نفس العصر ، لوجدنا ان الافريقي الذي يعيش في بلده يتمتع بمزايا أفضل من تلك التي يعيش فيها زميله الأوربي [١] . أما العبيد المباعون فهم ضحايا القرصنة الأوربية على سواحل افريقيا.

فقد أقام الأوربيون على تلك السواحل (في السنغال والداهومي) مراكز لخزن الرقيق تمهيداً لنقله الى أمريكا . وقدموا من أجـل ذلك لملوك السواحل الهدايا والاسلحة والمشروبات الروحية ليتولى هـؤلاء ارسال زبانيتهم النخاسين الى داخل البلاد لمطاردة الافريقيين وبيعهم .

وقد كان لتجارة الرقيق تلك ، أسوأ الأثر في حياة الافريقيين ، فتوقف كل عمل حضاري ونقص عدد سكان افريقيا الغربية نقصاناً

---

(١) تاريخ افريقيا قبل الاستعمار : للشيخ انتاديوب .

خطراً . أما القبائل والأفراد الذين نجوا من فخ تاجر الرقيق أو من مطاردة الصياد فقد انحشروا في الغابات والجبال تاركين أراضيهم وأملاكهم .ولم يجد هؤلاء الا جذور الأشجار يقتاتون بها . هذا ماقدمته أوربا لافريقيا : انه الخوف والعبودية والهلاك والجوع والتدمير والقتل والحروب والاستعمار والامراض الزهرية ،وفي هذا الصدد لن ينسى الافريقيون العطاء الانساني للحضارة العربية الاسلامية الذي كان نسغاً نشيطاً صافياً في شجرة الحياة الافريقية (١) .

الادارة وانظمة الحكم
في الممالك الافريقية في العصور الوسطى (٢)

يكاد نظام الحكم في افريقيا الغربية يكون متشابها في مختلف مؤسساته وتنظيماته:

ففي غانه ، المملكة التي لعب الاسلام فيها دوراً هاماً في آخر حياتها ، كان نظام الحكم يقوم على التقاليد القبلية الافريقية . فقد كان ملك غانه زعيما كبيرا لقبائل الساراكوله وهو في الوقت نفسه قائد عسكري ورئيس ديني ، يتبعه الكهنة الذين يقيمون في الغابة المقدسة مقر الآلهة .أما حكام المقاطعات والوزراء فهم من قبيلة الملك ، وتضم

---

(١) انظر في تجارة الرقيق الحاشية في ص ٥٩-٦٠

(٢) تاريخ افريقيا قبل الاستعمار : للشيخ انتاديوب.

الحاشية النبلاء من زعماء القبائل الأخرى التي كانت تعيش في المملكة.

والملكية وراثية في ابن اخت الملك ذلك لأن نظام السارا كوله القبلي يقوم على سيادة المرأة . وقد بقي هذا النظام ساريا الى ان ساد الاسلام في المملكة ، وعندئذ تغلبت سلطة الاب فكان ملوك غانه في المرحلة الاخيرة ، يتركون الحكم لأبنائهم الذكور . على أن هذا النظام لم يزل كلياً فيما بعد ، فقد وجدنا ابن بطوطة يعجب أشد العجب من توريث ابن الأخت [1].

وقد رأينا فيما تقدم (راجع بحث الحضارة الغانية) أن نظام الوزارة كان معروفاً في غانه وأن المناصب الوزارية قد تقلدها المسلمون نظراً لخبرتهم ولثقافتهم ، غير أن هذا النظام لم يدم طويلاً اذ سقطت غانه وقامت مملكة مالي على اسس وأنظمة لعب الاسلام فيها الدور الأول . ونظام الحكم في مالي ملكي وراثي ينتقل الملك الى افراد السلطان الذكور ، فان لم يترك السلطان عقباً من الذكور ينتقل العرش الى أحد أقرباء السلطان وفق الشريعة الاسلامية التي حلت محل العرف القبلي منذ القرن الثاني عشر .

وقد ترك لنا ابن بطوطة [2] في رحلته صورة عن بعض التقاليد الملكية فقال ما معناه : كان السلطان يجلس في قاعة كبيرة داخل القصر الملكي الذي بناه المهندس ابراهيم الساحلي ، ويحضر هذا المجلس الأمراء والقضاة والقواد في نظام خاص على يمين الملك وعلى يساره . وفي هذه القاعة يقابل الملك الحكام والقواد والأمراء الذين

(١ و ٢) رحلة ابن بطوطة ص ٢٠٠ وما بعدها .

يأتون من المقاطعات البعيدة ، وكان بباب هذه القاعة رجل (من قواد الجيش) يعلن بصوت مرتفع اسم الرجل القادم ليسمعه الملك[1] ويقول جبريل نيان:[2] انه كان الملك مالي سرادق كبير مغطى بالخشب يجلس فيه الملك على مكان مرتفع مغطى بستائر الحرير ،قد رتبت فيه الحشايا والوسائد في ظل شجرة البامبه الملكية وكانت أطراف السرادق تزين بصفائح الذهب ، وفوق رأس السلطان يطل عصفور ذهبي كبير . ويقام هذا السرادق الكبير في الهواء الطلق في فصل الجفاف ، وفيه يستقبل السلطان أفراد الرعية ويتلقى شكاواهم ، وقد حضر ابن بطوطة نفسه مجلساً من هذا النوع ، استقبل فيه الملك وفداً من شعوب الغابات ثم استمع الى شيء من الموسيقى من آلات مصنوعة من القصب . ويستقبل الملك الشعراء بمناسبة الأعياد، وكان الشاعر يضع رأسه في حجر الملك ويقبل كتفه الايمن فالايسر ثم يمدحه بقصيدة باللغة المحلية (المالانكة) ، ويقول ابن بطوطة ان هذه عادة ترجع الى ماقبل الاسلام ولكن القوم استمروا عليها .

وفي الجمعة والاعياد يحضر السلطان الصلاة ويستمع الى خطبة الامام التي تلقى بالعربية ثم يقوم الترجمان بترجمتها للمصلين . وفي المسجد كان السلطان يتلقى أيضاً الشكاوى ،فقد أورد ابن بطوطة قصة [3] تدل على عدل سلطان مالي، ملخصها أن احد التجار اشتكى

(١ و ٢) جبريل نيان : العدد الاول من سلسلة الدراسات الافريقية لعام ١٩٦٠

(٣) ابن بطوطة الرحلة ص ٢٠٣.

اليه في المسجد من معاملة أمير والاتا (في الشمال) فأمر الوالي بالمثول الى العاصمة وأديل الحق منه علناً ثم عزل عن الولاية . وكانت العادة ان يعفر الافراد الذين يودون مقابلة الملك ، رؤوسهم بالتراب ويضربون صدورهم ثم يجلسون على الركب حاسرين ، الا ان الاسلام قد خفف من وطأة هذه التحية فيما بعد ، فاقتصرت على التصفيق . على ان فخامة بلاط مالي ، كما يقول نيان ، انما هي صورة لما كان سائداً في بلاط مراكش ومصر . [1] ومن هذا نرى ان ملك مالي كان يخضع لنظام تقليدي صارم كثير التشعب وكان البلاط في مالي يعج بالحاشية الكثيرة ، فقد ذكر القلقشندي [2] انه كان بهذه المملكة الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين وكان السلطان لا يكتب شيئاً وانما يكل أمـــوره الى صاحب وظيفته (يقصد به نائب السلطان) . ويستفاد من ابن بطوطة [3] ان مالي كانت مقسمة الى ولايات ، على كل منها وال من العائلة المالكة أو من القبائل الحليفة لها ، والوالي قائد للجيش المحـــلي يتلقى تعلياته من السلطان مباشرة . وينحصر الحكم في المقاطعات في القبائل التي اشتهرت بغناها وبكثرة الفرسان والمحاربين فيها او بتأييدها للملك كقبائل تراوري ، كوندي ، كوناتا ، غوروما . [4] .

---

(١) جبريل نيان : العدد الاول من سلسلة الدراسات الافريقية لعام ١٩٦٠ .

(٢) مجلة المجلة عدد شباط ١٩٦١ : مالي بين ماضيها المجيد وحاضرها الناهض ، مقال للدكتور عبد الرحمن زكي .

(٣) مملكة مالي : جبريل نيان .

(٤) لا تزال كثير من العائلات في غينيا العليا وجمهورية مالي تحتفظ بهذه الاسماء . وهي ، دون شك ، تنحدر اصولها من تلك القبائل .

وفي نظام الوزارة يقول المؤرخ الغيني جبريل نيان : انه كان بمالي وزارات لأهم المصالح العامة (١) ويسمى الوزير Farama, Fama فاما أوفاراما ،وقد وجد في مالي وزير للثقافة وآخر للأملاك وثالث لشؤون مياه النيجر والملاحة النهرية والصيد ورابع للغابات وخامس للخزانة. وكانت هناك وظيفة كبيرة تدعى صاحب السلطان (الحاجب)، وفي مقدمة هؤلاء الوزراء يأتي نائب السلطان ، وهو رئيس الوزراء يليه في الرتبة الفقهاء الذي كانوا في اغلبيتهم من العرب ، ولهم رئيس يدعى القاضي الأعلى. ومن الجدير بالذكر أن هذه الوظائف الكبرى التي مر ذكرها، كانت موزعة بين كبار الزعماء من قبيلة الملك «المالانكة».

أما في مملكة السونراي في غاو فقد سادت هناك الشريعة الاسلامية بحذافيرها ، وكانت الملكية وراثية في الابن الاكبر ، كما هي الحال في الخلافة الاسلامية في الشرق، ولما كان أحد المغتصبين يضطر لتغيير هذه القاعدة يعود الامر الى نصابه بعد وفاته . وهزيمة الملك في معركة تفقده حق توريث أولاده ، فقد رفض الشعب في غاو ان يتولى السلطة ابناء الملك اسحاق الثاني الذي هزم امام المراكشيين .

اما المجالس الملكية فهي تشبه تلك التي كانت موجودة في مالي ، وكان قائد الجيش والقاضي يجلسان الى جانب الملك أثناء مقابلاته . وقد كثر الخصيان في بلاط غاو .على أن ظاهرة هامة ، تعود الى تأثير

---

(١) سلسلة الدراسات الافريقية العدد الاول لعام ١٩٦٠ ،مقالة بقلم جبريل نيان.

الاسلام القوي ،قد سيطرت في مملكة غاؤ وهي أن يتناول الملك طعامه مع العلماء [1] .

اما المناصب الوزارية والولايات فقد كانت مقصورة على أقارب الملك [2] (وزعها الملك محمد الحاج على أولاده) ،الا ان قواد الجيوش لم ينتسبوا بالضرورة الى طبقة معينة ، بل ان كثيراً من المسترقين كانوا يصلون الى هذا المنصب كما سنرى .

وقد تحدث السعدي [3] عن معنى الملكية في غاؤ فقال :ان الشعب كان يتمسك بالملك الشرعي، فقد حدث ان السلطان محمد الحاج قد سجن احد افراد العائلة المالكة السابقة :وهو الامير محمد بانكان المطالب بالعرش وهو من نسل علي الكبير ،ولما هزم السلطان اسحاق الثاني امام المراكشيين وجد السكان ،في غاؤ، الفرصة مواتية ليلتفوا حول أحد أبناء الامير محمد من العائلة المالكة الشرعية لأنه ، بعودته ، سيكون سبباً لاعادة بركات السماء لأبناء شعبه ،مما يدل على أن السلطتين الدينية والزمنية [4] قد امتزجتا امتزاجاً تاماً في مملكة غاؤ .

وقد تجلى ذلك عندما عاد السلطان محمد الحاج من الأراضي المقدسة يحمل لقب خليفة السودان عام ١٤٧٩ ،وقد اصطحب معه أربعة من

---

(١) افريقيا قبل الاستعمار: انتاديوب .

(٢) سلسلة الدراسات الافريقية العدد الاول لعام ١٩٦٠ .

(٣) أنتا ديوب .

(٤) المصدر السابق .

القرشيين الذين أقاموا في المملكة بقصد الاستفادة من خبراتهم ، والتبرك بأنسابهم ،وكان لمجيئهم أثر في وجود طبقة الأشراف في افريقيا الغربية .

ونشير هنا الى أن نظام الوزارة في غاؤ يضم وزيراً للقصر، وهو رئيس الوزراء،وآخر للزراعة والغابات وثالث للخزانة ورابع للري وخامس للعلاقات الأجنبية ، وقد يجمع الوزير بعض المهام الاخرى بالاضافة الى وظيفته الأصلية (١).

ادارة المقاطعات في الممالك الافريقية (٢)

كان النظام الاداري في غرب افريقيا على درجة عالية من الرقي اذا ماقورن بالأنظمة الادارية الأوربية في القرون الوسطى ،ويقوم هذا النظام على أساس النظم المركزية في بعض الأحيان ،الا أن الحاكم أشبه بملك ، تلتف حوله حاشية صغيرة ،ويعطى بعض الصلاحيات اذا كان مأمون الجانب أو قريباً للسلطان . وكانت بعض المقاطعات تخضع لأسرة من الحكام ينتقل الحكم من وال الى آخر بالارث ، وعندما يلمس هؤلاء الحكام ضعفاً في العاصمة ينفردون بمقاطعاتهم ، كما حدث عندما انفصلت مالي عن غانه وعندما استقلت غاؤ عن مالي ، الا أن تغلغل الاسلام في النفوس قد أعاق فكرة التمرد عند أكثر الحكام، وبالتالي قويت الروابط بين العاصمة والمقاطعات بالروابط التالية :

١ - **الرابطة الدينية** : فالاسلام شمل جميع انحاء مملكة مالي

(١) انتاديوب .
(٢) في مالي وغاؤ .

ومملكة غاؤ ولذا امتنع كثير من الحكام عن الانفصال ايماناً منهم بأن خلع طاعة السلطان من باب الارتداد عن الدين .

٢ ــ كان ملوك السونزاي في غاؤ أشداء على ولاتهم، يحاسبونهم على اخطائهم بالسيف ،لذا كان الحاكم يستمر في حكم مقاطعته طيلة حياته اذا ثبت صلاحه وطاعته للسلطان .

٣ ــ لم يكن التملك الفردي واضح المعنى في افريقيا الغربية لذلك ليس ثمة داع لأن ينفصل حاكم ما بولايته لأنه لايستطيع الادعاء بأنه يملك أرضاً تخصه .

وكانت كل من مملكة مالي وغاؤ مقسمتين الى ولايات تختلف في مساحتها الا أن أسماءها متشابهة لأنه غاؤ قد ورثت أكثر من ثلثي مملكة مالي . وأهم هذه الولايات : جنه ، طومبوكتو ، تكازا ، ولاتا ، نيما . .

حفلات التنصيب

جرت العادة في كل من مالي وغاؤ أن ينصب الملك على عرشه في سرادق كبير في الهواء الطلق ، ويقف أمامه جميع سكان العاصمة ويحيط به الوزراء والقواد والقضاة ،ثم يقسم الجميع يمين الولاء بعد صلاة الجمعة . وبعد ذلك يجري تعيين حكام المقاطعات و تسمية الوزراء ثم ترفع الاعلام . وفي المساء يحتفل القوم رجالاً ونساء بالملك الجديد في حلقات

الرقص التي تدوم الى الصباح . وقد حمل ملوك مالي وغاؤ شارات تشبه تلك التي يحملها الخلفاء العرب .

الجيش

يتألف الجيش في مملكة غانه من عناصر أساسية من قبيلة الملك الساراكوله، ويضاف اليها أفراد من القبائل المسترقة التي تعمل في خدمة الملك . ويبدو أنه كان لغانه فرق من الحرس تجـــوب الصحراء لتقر الأمن حفظاً لسلامة القوافل التجارية القادمة عبر الصحراء. وكان الملك الغاني قائداً عاماً للجيش ، لأنه أكبر زعماء القبائل شأناً وأشدهم قوة. وفي مالي اتخذ الجيش صفة ثابتة وكان يضم مئة ألف مقاتـل وعشرة آلاف من الفرسان (١) ويتألف في معظمه من شعب الماالانكه ومن القبائل الحليفة . وملك مالي قائد عام للجيش . وقد تولى هذا المنصب الملك سونديايا في حملاته لتحرير بلاده فكان يرسم مع ضباطـه الخطط العسكرية ويشرف بنفسه على تنفيذها .وكان الجيش موزعاً الى فرق تقيم في المقاطعات ،فلكل حاكم فرقةمن الجيش يقودها بنفسه في الحروب وتساعده على اقرار الأمن . وكان جيش مالي من القوة بحيث استطاع أن يصمد امام الهجمات الوثنية ،وأن يفرض طاعة السلطان على كثير من الأنحاء ،وقد وصل بعض القـــواد في الجيش الى عرش المملكة كالقائد ساكورا (١٢٨٥ — ١٣٠٠) . أما في غاؤ فان الجيش قد

(١) مجلة المجلة « عدد شباط » ١٩٦١ مالي بين ماضيها المجيدوحاضرها الناهض ، الدكتور عبدالرحمن زكي.

تطور تطوراً يناسب اتساع المملكة وتقدمها المطرد في ميدان الحضارة.
وجيش السونراي يعتمد على المرتزقة الدائمين وكان مقسماً على النحو التالي [1] :

١ – القواد :

وهؤلاء ينتمون الى طبقات مختلفة وقد توصل بعضهم الى مناصب عالية جداً بفضل مؤهلاتهم ، فقد كان السلطان محمد الحاج قائداً مملوكاً عند الملك علي الكبير، وهذا جندي يدعى الأمين كان يعتني بالخيل في عهد السلطان محمد الحاج ، عينه الملك اسماعيل قائداً للمشاة ثم جعله الملك داود حاكماً على مدينة جنه أكبر مدينة تجارية في المملكة .

٢ – الفرسان والاسلحة :

كان في جيش غاؤ فرقة من الفرسان يقاتلون في الحرب بدروع حديدية ويركبون خيولاً باهظة الثمن ،لأن حياة الحصان في ذلك الاقليم محفوفة بالمهالك ،بسبب عدم استعداده لاحتمال الحرارة الشديدة، على أن الدروع الحديدية لم تكن منتشرة كثيراً بين الجنود ، وكانت خاصة بالقواد والأمراء .وكان التجريد من الدرع وصمة عار في الحرب، وقد جرد السلطان محمد الحاج أحد أعدائه من الدرع .

ويلبس السونراي القناع في الحروب فلقد قابل السلطان محمد بانو عام ١٥٨٨ عدوه محمد الصادق لابساً درعه بينما كان عدوه يضع قناعاً.

(١) انتا ديوب .

وفي السفارة التي أرسلها اسحاق الثاني الى سلطان مراكش عام ١٥٩٠ حملت بعض الدروع والأحذية الحديدية اثباتاً لقوة المملكة .

وكانت هناك أسلحة أخرى من الحديد هي الرماح والتروس وهي من صنع محلي ،الا أن الدروع كانت تستورد من شمال افريقيا، وكانت تستعملها الطبقة الممتازة نظراً لغلاء ثمنها ،وشدة الحرارة في ذلك الاقليم كانت مانعاً آخر في عدم انتشار هذه الدروع .

٣ ـ المشاة :

فرقة المشاة تشكل قسماً كبيراً من الجيش ، وهي تحمل القسي . ومن هذه الفرق كتائب توضع في مقدمة الجيش وقد اشتهرت بشجاعة افرادها وخفتهم ،وهؤلاء هم الفدائيون وكتائب الاستطلاع . وكان جيش غاو يعرف في السودان بالجيش الذي لا ينهزم في معركة ،حتى جاء المراكشيون بأسلحتهم النارية فقضوا على هذه السمعة . وكانت هناك فرق موسيقية تستعمل طبول «التام تام» لاثارة حماس المحاربين . ومن هؤلاء المشاة فرق احتياطية من المرتزقة الطوارق، وهؤلاء يركبون الجمال ويقاتلون عليها أحياناً . ويضع الطارقي لثاماً يحجب معظم الوجه .

٤ ـ الحرس الملكي :

كان الملك محاطاً بحرس يقوده النبلاء من العائلة المالكة . وكان لكل أمير حرس خاص من الذين يأتمنهم . ولأفراد الحرس أغان خاصة في مدح الملك ينشدونها لتحميس أفراد الجيش ، ولفرقة الحرس أهمية

خاصة عند الملك ، فلقد حدث أن الأمير عثمان أخا الملك داود قد ثار ضد أخيه عندما أنشدته فرقته ما أهاج نفسه، فأقسم على الاستمرار في الثورة .

٥ ـ الاسطول النيجري :

كان جيش غاو يملك أكثر من ألف قارب ينقل عليها الجنود الخفاف في حالة الحرب، وقد كانت هذه القوارب عاملاً هاماً في الحرب المراكشية . وقد استعملت القوارب في أعمال الحراسة ومراقبة القوافل التجارية واقرار الأمن في هذه الطريق النهرية الهامة .

وينبغي أن نشير هنا الى أن السونراي كانوا يضعون الخطط العسكرية التي تتضمن ارسال الكشافة لمعرفة مواقع العدو، ثم يتبعها الجيش الذي يعمل بتقاريرها. وقد اشتهر السونراي أيضاً بصبرهم على حصار المدن ، فلقد حاصر الملك علي الكبير مدينة جنه سبع سنوات أخذ جنوده خلالها بزراعة الأرض ، ولما توفي ملكها أثناء الحصار خضعت المدينة .[١]

(١) افريقيا قبل الاستعمار : انتاديوب .

القضاء

القضاء، في تلك الممالك ، لم يكن منفصلاً عن الدين الاسلامي ، بل انه أثر مباشر للحضارة العربية الاسلامية في تلك الأصقاع. وقد تطور القضاء [1] من شكله البسيط في أواخر حياة مملكة غانه، فكانت كومبي مركزاً للقاضي الوحيد في تلك الأنحاء. ولما نشأت المدن التجارية والثقافية كطومبوكتو وجنه ، وجدت فيها المساجد وكثر فيها التجار العرب والفقهاء القادمون من شمال افريقيا [2].

ومنذ أن ظهرت مملكة مالي وجد القاضي في العاصمة والقضاء في المدن الهامة ،وكذلك كان الشأن في غاؤ .

وفي غاؤ ، ومالي كانت هناك محكمتان : الأولى

(١) كان الملك الغاني في العهد الوثني قاضياً يفصل في كثير من الخلافات اثنا تجواله في المدينة.

(٢) ذكر جبريل نيان في سلسلة الدراسات الافريقية ان عبد الرحمن التميمي الفقيه الذي اصطحبه الملك موسى الاول صاحب مالي ، قد وجد في طومبوكتو علماء يفوقونه ثقافة وخبرة ، لذا اضطر لمتابعة تعليمه في فاس ومن ثم عاد الى طومبوكتو ليكون القاضي الاعلى في البلدة.

المحكمة الملكية برئاسة الملك ، والثانية محكمـة القاضي الذي يعينه الملك ، وهو يختص بالنظر في الجرائم العامة والجنح وبالخلافات بين المواطنين ، وكانت الطرق المتبعة في أخذ افادة المتهم في غانه بدائية : ففي جريمة القتل يستعمل القاضي تجربة الماء في المحكمة، وهـــي أن ينقع خشب مر في الماء ويسقى للمتهم ، فان تقيأ المنقوع المريكن بريئاً. على أنه اتبعت طرق أخرى في مالي وغاؤ تتسم بأنواع من التعذيـب التي كانت سائدة في العصر الوسيـط . وان كثيراً من الأبرياء قـد ذهبوا ضحايا لهذه الطرق[1] .

وفي طومبوكتو المدينة التجارية الدوليـة وجـد الى جانب القاضي الذي يحكم بالشريعة الاسلامية قـاض مساعد، يفصل في قضـــايا الأجانب .

ويشترط في القاضي أن يكون عالماً فقيهاً متحلياً بالنزاهة والورع ، ولم يتوفر شرط العلم في بادىء الأمر ، فكان القضاة من العـرب، ولما كثر المثقفون الذين تعلموا في فاس والقاهرة ، عمل قسم منهم في القضاء وفي الخطابة وامامة المساجد . ولم يكن أحد ليتسلم منصب القضاء ان لم يكن أهلا له خوفاً من غضب الله .وقد جرت العادة ألا يقبل الفقيه في غاؤ هذا المنصب الا بعد رفض متواصل ، والحاح مستمر من الملك ، ويعتبر بيت القاضي محرماً كالمسجد ، يلتجىء اليه أحياناً زعماء المعارضة خوفاً من الملك ، وكان القاضي يجيرهم .

---

(١) انتا ديوب

وعندما تكون الأحكام متعلقة بعامة الشعب يعلن القرار على الملأ ، وتتراوح العقوبة بين السجن أو الجلد ، أو الموت أو المصادرة .

أما جرائم الخيانة فهي من اختصاص المحكمة الملكية التي تعقد برئاسة الملك . فلقد حكم أحد السلاطين بنفسه على الذين اشتركوا في مؤامرة خلعه ، وكان الحكم متناسباً مع دور كل منهم في الخيانة . وقد تصل الأحكام الى درجة قاسية : فقد أمر السلطان اسحاق الثاني أحد الثوار بأن يدُفن حياً ، وقد يطاف بالمجرم في انحاء المدينة .

وكان قاضي طومبو كتو من أكبر القضاة ،وقد تولى هذا المنصب الخطير كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأئمة.

أما العقود فهي مسجلة على النحو الشرعي ، ولقد قام عبد الرحمن السعدي المؤرخ بتسجيل عقد لأحد المتهمين فقال : دخلت السجن لأقابل المتهم وقرأت عليه العقد الذي يوضح أملاكه فأعلن موافقته عليه ، واضطلع عليه مكتوباً (١) .

وقد أشار ابن بطوطة مرات عديدة الى الاستقرار والأمن والعدل في الأحكام في مملكة مالي ونوه بقيمة القاضي العظيمة .

---

(١) Anta diop .

الحياة الاقتصادية

موارد الدولة : الضرائب

كان للدول في غرب افريقيا عدة موارد مالية تقوم بالدرجـــة الأولى على الضرائب ، وكان على كل فرد قادر أن يدفع عشر دخله من الضرائب العينية ، ثم أصبحت هذه الضريبة نقداً من الذهب في مملكة مالي ، وقد فرضت الضرائب الباهظة على السكان ، كما فعل السلطـــان اسحاق عندما كلف تجار طومبوكتو بدفع ضرائب ضخمة ، فنشأ من ذلك اضطرابات كثيرة في هذه المدينة .

وكانت هنالك ضرائب جمركية وضع لها نظام خاص ، وقد ذكر البكري أن ملك غانه كان يفرض ديناراً ذهبياً على كل حمار محمـــل بالملح ،يدخل الى بلده ،وديناربن على نفس الكمية عندما تخرج من بلده الى بلد آخر . كما كانت تفرض ضريبة ، بين خمسة وعشرة مثاقيـل ، على الدابة التي تحمل مواد أخرى من البضائع التجارية ، وقد وجـدت هناك عقوبات وغرامات وأتاوات.

وكان في غاؤ مستودعات لخزن الضرائب العينية كالقماش، والسيوف والسروج .

وكانت الممالك الافريقية تتمتع بثروة عظيمة من الذهب الذي يكثر في تلك البلاد ، وقد تحدث عن كثرته معظم المؤرخين العرب، كالبكري وابن بطوطة وابن خلدون . ويقول في ذلك البكري [١]: ان الذهب في غانه كان في أعالي السنغال على مسيرة ثمانية عشر يوماً من العاصمة (في المنطقة الواقعة الآن بين نهر السنغال ورافده « فالامه » والمسماة البامبوك Bambouk) .وقد ترك ملوك مالي قسماً كبيراً من الذهب (الخليط) للشعب ،بينما احتفظوا في خزائنهم بالسبائك الكبيرة، ليحافظوا على سعره . وقد ذكر ابن خلدون ان قطعة كبيرة جداً من الذهب ، كانت للملك مالي ، باعها أحد خلفاء الملك موسى الى التجار المصريين ، ولقد كان كل ذلك الذهب ارثاً من مناجم البامبوك التي كانت لغانه ،وبعد ذلك انتقلت هذه الثروة الى مملكة غاؤ ، بالاضافة الى ما تنتجه مناطق النيجر من الذهب ،وقد وجد الملك محمد الحاج كميات هائلة من الذهب في خزائن الملك علي الكبير، بذّر منها الكثير أثناء حجه . وكان قاضي طومبوكتو يشرف على أموال الملك علي لأنه أشرف من يؤتمن عليها ، وقد ازدادت أهمية الذهب عندما أصبح نقداً متداولاً وموضع شهوة التجار . على أن الغزوات كانت مصدراً هاماً لمالية الدولة ، لأن الملك المغلوب يفقد كل ثروته

(١) Anta diop.

لمصلحة الغالب . وعلى العموم كانت الضرائب ، من حيث المبدأ ، منح جزء من الثروة للملك ، لأنه واسطة الاتصال بين العالم الروحي والزمني ليدوم ملكه ولتنعم الطبيعة بالخصب .

الاقتصاد الافريقي القديم ـ الزراعة :

تميز اقتصاد افريقيا خلال العصور الوسطى ، بالاكتفاء الذاتي الاستهلاكي ، لأن الانتاج كان محصوراً محدوداً ،هدفه ضمان استمرار البقاء . فليس هناك صناعة راقية . وتقوم التجارة التي لعبت دوراً هاماً على المقايضة المنظمة ، وكان هناك تكتل في رؤوس الأموال في بعض المدن مثل طومبوكتو وجنه .

أما الزراعة ، في افريقيا الغربية ، فقد بلغت شأواً لا بأس به :

تكثر الغابات في انحاء افريقيا الغربية الجنوبية ، وفي هذه المنطقة ازدهرت حضارات شعوب « اليوروبا » و « الداهومي » و« الأشانتي ». أما اذا اتجهنا شمالاً ،فاننا نجد السهوب التي تتخللها الوديان الخصبة ،وهي مناطق موفورة المياه والأمطار ، تزرع بالحبوب والأرز والموز والقهوة ، والى الشمال من هذه المناطق نلتقي بالأراضي الفقيرة التي يعتمد سكانها على الصيد والرعي وزراعة بعض الحبوب. ويعمد الافريقي قبل البدء بزراعة أرضه الى حرق البقايا الجافة ، ليتحول الرماد بعد نزول المطر الى سماد يكسب الأرض خصباً قوياً . وبعد أن ينتهي من جني المحصول يتركها مدة سنة على الأقل لتستعيد قوتها . ويقوم الرجل

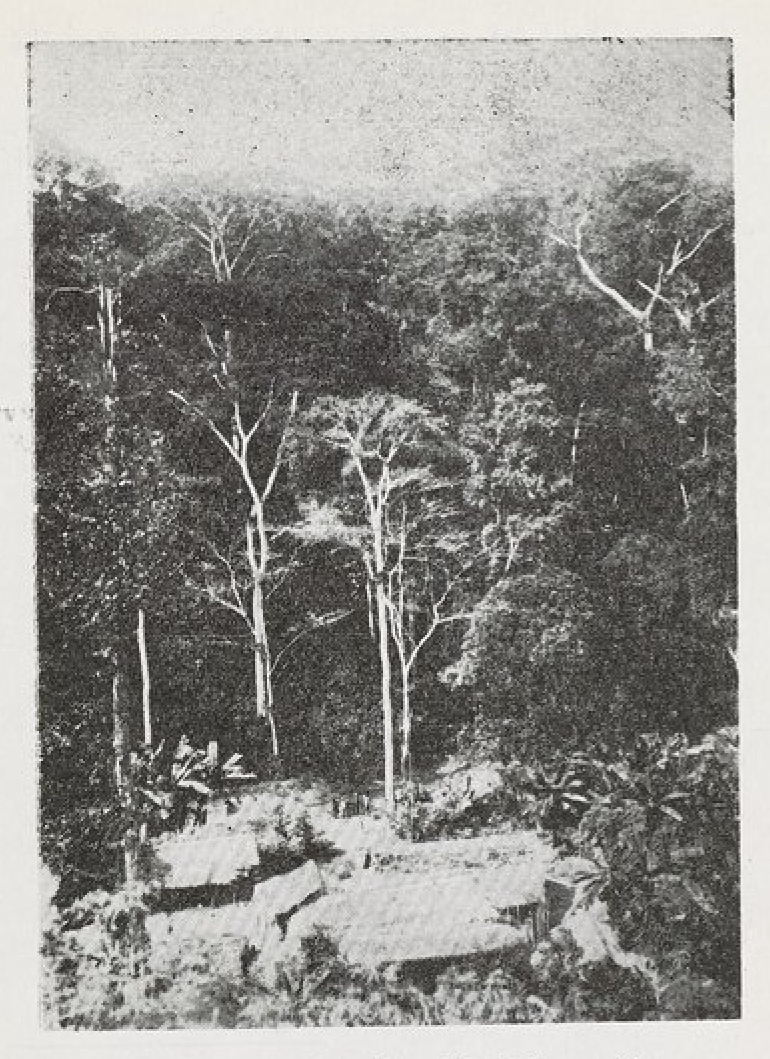
والمرأة على السواء في الأعمال الزراعية . وفي فصل الجفاف ينحـــدر الرعيان بقطعانهم نحو مجاري المياه والوديان في السنغال والنيجر حيث يبدأ العمل بزراعة الارز .

وفي هذه الأقاليم ظهرت الممالك الثلاث : غانه ومالي وغاؤ . وفي فصل الأمطار يعود المزارعون الى أعمالهم، فتخف اليد العاملة في المدن وتركد الحركة الصناعية بعد ان كانت مزدهرة في فصل الجفاف . وتزرع الأرض البعلية بالذرة والبطاطا ويستمر العمل بها حتى فصل الجفاف ،أما الأرض التي تقع على مجاري المياه فانها تزرع بالخضـــر والتوابل، ولا يترك الفلاح الافريقي أرضه الا مؤقتاً .

وتمتاز مناطق النيجر الأعلى والسواحل بكثرة الماء على سطح الأرض، لذا فهي تربة خصبة لزراعة الأرز .وقد جرت العادة ، منذ العهد الوثني، أن تقام الطقوس الدينية قبل البدء بالعمل الزراعي [1] وأثناءه ، لطلب المساعدة من السماء ، ولهذا نشأ التقارب العائلي المبني على الخضوع الى شيخ مسن،له خبرة بديانة الأجداد عند الوثنيين .ولما جاء الاسلام تغيرت النظرة الى الزراعة فأصبحت بعد التجارة والجهاد في الاهمية . غير أن المجتمعات الزراعية في الفوتادجالون (غينيا) لاتزال تعتقد بشيء من الرواسب القديمة ، فهم يطلبون الى الامام أن يتدحـــرج بجسده على

---

(١) جاء في رواية « L'enfant Noir » ان العمل الزراعي جماعي اذ يزرع جميع سكان القرية أرضاً ويعتنون بها سويا ثم يحصدون ويتقاسمون المحصول .



منظر من الغابة الاستوائية (ساحل العاج)

الارض ليمنحها الخصب .

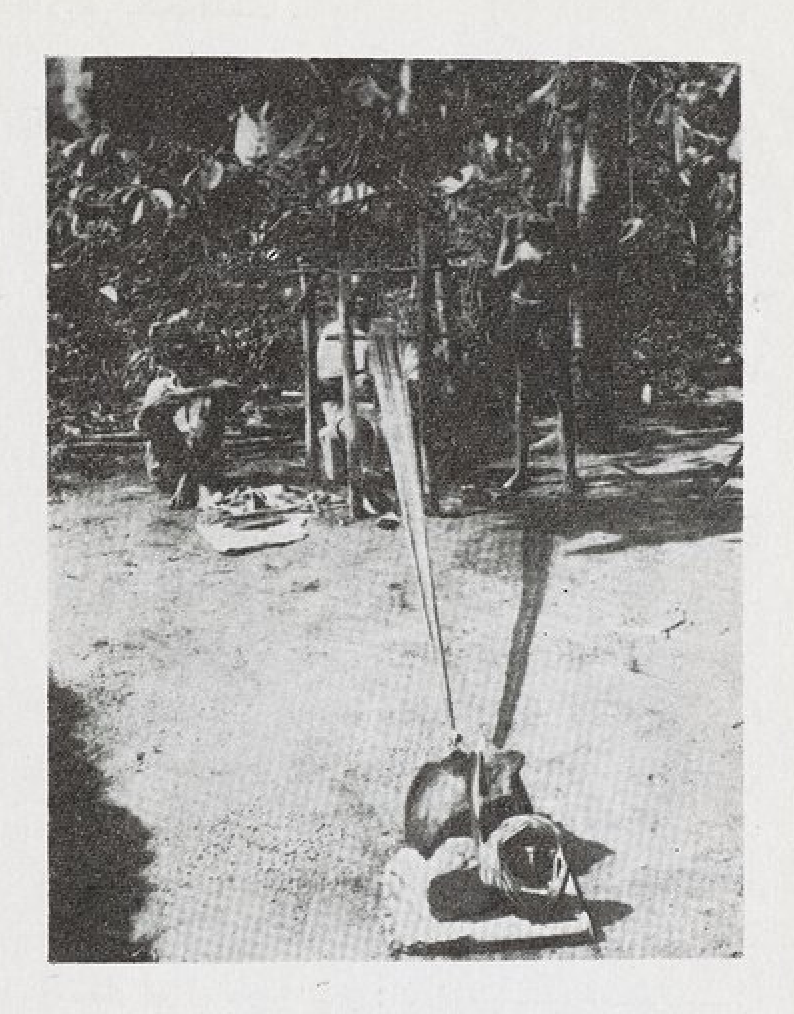
ولقد أصيبت الزراعـــة ، كغيرهـا من المـوارد الاقتصادية ، بانهيار كبير بسبب عدم رغبة الافريقي في التملك ، بعد أن اعتاد قرونا طويلة على شيوع الارض والحياة وحق الاستعمال العـــام . ومن جهة اخرى فقد تلقت الزراعة ضربـــة قاضية بنقص اليد العاملة التي ذهبت في عداد الرقيق،عند بدء الاستعمار الاوربي لافريقيا ، ولهذا وجد الأوربيون المستعمـــرون مساحات كبيرة من الاراضي الخصبة في هذه البلاد ،لايملكها أحد ، فاستولوا عليها بدون عناء .

الصناعة :

شهد القرن الرابع عشر في افريقيا الغربية تطوراً هاماً في الصناعة : فكان لها مختصون في مختلف المهن . فكان هناك الحدادون وصانعو الاباريق الفخارية والنجارون والحائكون والصائغون .وقـد عملت النسوة في بعض الصناعات . وقد شهد ليون الافريقي بالشهـرة التي وصلت اليها النعال الافريقية في شمال افريقيا ؛مما يدل على تطـــور كبير من صناعة دبغ الجلود من حيوانات المنطقة . وقـد استعمـــل الافريقيون القطن والصوف في الحياكة اليدوية ، وقد حمل التجـار العرب الى تلك البقاع تحسينات كثيرة في الصناعة النسيجية وفي غيرها، وقد قال كاتي في التاريخ الفتاش : ان طومبو كتـو كانت مركـــزاً عظيماً لخياطة الملبوسات [1] .

---

(١) انتاديوب.



حـائك افريقي

وان الاسلحة التي توجد نماذج منها في المتاحف الفرنسية تؤكد رقي صناعة الاسلحة .

وكان للنشاط التجاري والمواصلات النهرية في النيجر والسنغال أثر في ازدهار صناعة القوارب والعوامات ، ويمكن القول ان اسطولاً تجارياً ضخماً كان يعمل في نقل البضائع بين طومبوكتو وبين غيرها من المدن .

وقد دلت الابحاث على وجود صناعة بدائية للزيت من النخيل والفستق [1] .

وساهمت الصناعة في ايجاد الطبقات التي يأتي في مقدمتها الحدادون.

التجارة :

كانت الفعاليات الاقتصادية النشيطة في غرب افريقيا تتركز على التجارة بالدرجة الأولى . فعندما قضى الاسلام على شيء من التكتلات القبلية وساعد على توحيد الافريقيين في دول قوية مستقرة، أخذت التجارة شكلاً منتظماً بوجود طبقة من التجار العرب والافريقيين في كل من غانه ومالي وغاؤ ، يدل على ذلك نشوء المدن التجارية الدولية

---

(١) ذكر المؤرخ الغيني جبريل نيان ان جنوب مالي كان مشهوراً بصناعة استخراج الذهب وكان مشهوراً ايضا باستخراج زيت النخيل. وقد ذكر ان ملك مالي كان يكلف القبائل الوثنية باستخراج الذهب بدلا من دفع الجزية والضرائب الاخرى . والرواية قد نقلها المؤرخ من العمري في كتابه « مسالك الابصار في ممالك الامصار » « الدراسات الافريقية العدد الاول لعام ١٩٦٠ » .

مثل كومبي وطومبوكتو . ونيـاني وجنه وغاؤ . وكانت (كباره) ميناء طومبوكتو الحربي والتجاري ملتقى للبضائع القادمة من شمـــال افريقيا ومنها تتوزع نحو مالي والنيجر الأعلى والداندي في الداهومي ، والى هذا الميناء تصل بعض البضائع الافريقية المنقولة عبر نهر النيجر في طريقها الى شمال افريقيا . وكان التجار يشكلون طبقة كبيرة فاطلق عليهم الوانكارا أو الديولا في بعض المناطق. وقد أكد البكري أن بعض القبائل امتهنت التجارة وعرفت بها مثل قبائـــل الساراكوله والمالانكه وهؤلاء عملوا في تجارة الذهب .

وفي المدن التجارية أحياء خاصة للتجار العـرب الذين يقيمون في دور بنوها فوق مستودعات البضائع، وكان أغلب التجار العـــرب من الجزيرة واليمن ومصر وشمال افريقيا [1] . وكان أبناؤهم يدرسون في مساجد طومبوكتو وجنه مع زملائهم الافريقيين ، وكانت المدينـــة الأخيرة أكبر مدينة يرتادها الأجانب من العرب والبرتغاليين والاسبان، وكان شعب المدينة التجاري يرحب بهم كثيراً .

وكانت صادرات البلاد تنحصر في الذهب والكولا والجـــلود والصمغ وبعض انواع الحيوان ، أما واردات المنطقة فهـــي كثيرة وأغلبها استهلاكية كالقمح وزيت الزيتون والتين والملح والصدف

---

(١) كان ابن بطوطة يكتب الى اصدقائه التجار والفقهاء العرب في المدن الافريقية ، نياني ، عاصمة مالي، وغاؤ وطومبوكتو، ليكتروا له داراً مناسبة. الرحلات ـ لشوقي ضيف .

والأواني النحاسية والتمر والزيتون والحناء ،والحرير والنسيج والبروكار واللؤلؤ والمرايا .

على أن التجارة الداخلية بين المناطق الافريقية كانت مزدهرة أيضاً فكانت تجارة الارز والكولا نشيطة جداً [1] .

المقايضة والنقد : [2]

لم يكن هناك، خلال العصور الوسطى ،نظام نقدي معين،وقد اتخذت المقايضة منذ تأسيس غانه أساساً للتبادل التجاري. وكان العرب يحملون بضاعتهم الى وادي السنغال ويعرضونها في اماكن خاصة ثم ينسحبون ، فيأتي الافريقيون فيضعون الى جانبها كمية الذهب التي تناسب أثمانها ، وعندئذ يأتي التاجر العربي ، بعد انسحاب الافريقي ، ليتقاضى الثمن ذهباً ،فان لم يرض التاجر بالثمن امتنع عن رفع كميـة الذهب الموضوعة أمام بضاعته وانسحب ، فيعود الافريقي ويزيد في كميـة الذهب أو أنه رفعها اشعاراً منه بأنه لايمكنه ان يدفع اكثر مما دفع . على ان هـــذا النظام قد تطور بانتشار الاسلام الذي آخى بين العرب والافريقيين فقويت الثقة المتبادلة . ووجدت وسائل أخرى للمقايضة كقوالب الملح أو الصدف أو ثمرة الكولا .

ولم تلبث هذه البضائع أن اصبحت نقداً متداولاً الى جانب الذهب

(١) اتاديوب — جبريل نيان .

(٢) المصدران السابقان .

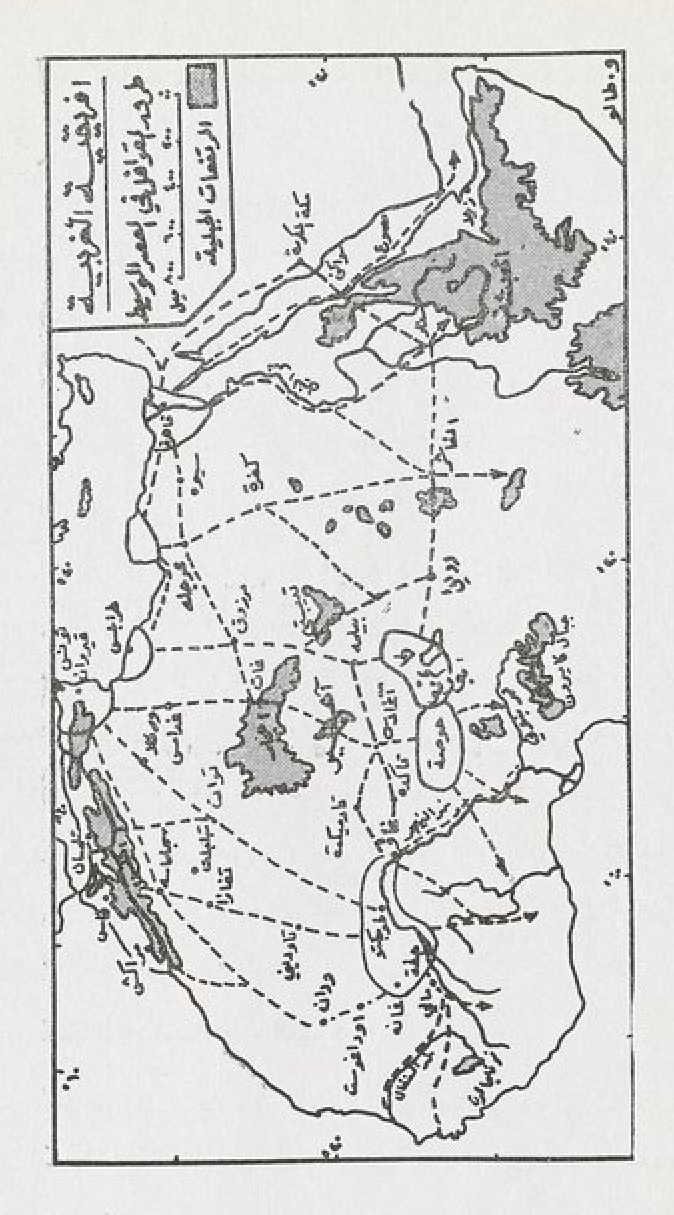
الخليط أو القطع الذهبية المسكوكة في الخارج . ولما كان النحاس نادراً فانه استعمل نقداً متداولاً ،أما الصدف فقد استعمل بتأثير عـربي من السودان العربي واليمن، كما يقول ليون الافريقي ،وندرته هي الـــتي اكسبته القوة الشرائية.وقد توصل الافريقيون في القرن الرابع عشر الى تنظيم النقد الذهبي بضربه محلياً وقد عرف بالمثقال وهو من ٤ ـ ٦ غ من الذهب . وقد وجد ليون الافريقي في غاؤ نقداً متـــداولاً يسمى الدوكا الذهبية . وشهد البكري بأن النسيج كان نقداً مستعملاً . وفي بعض الحالات استعمل النقد السائد في المغرب ، فقد رأى ابن حوقل معاملات تجارية مكتوبة على شكل عقد ،لتاجر من سجلماسه (جنوب فاس) على تاجر من أوداغست (في جنوب موريتانيا) بمبلغ أربعين ألف دينار مغربي . وقد وجدت في أيدي الحاشية في بلاط مالي وغاؤ دنانير مغربية ومصـــرية استعملت لشراء حاجات الأسرة المالكة، من منسوجات وكتب وتحف ،من التجار العرب .

وسائل النقل ـ المواصلات [1]

كانت وسائل النقل في افريقيا تعتمد بالدرجة الأولى على الحمار ، والثور والجمل ، ثم الطرق النهرية في السنغال والنيجر . أما الاتصال بشمال افريقيا ومصر فانه قد تم عن طريق قوافل الجمال في الصحراء. وكان المسيطر على هذه المواصلات العرب والطوارق والبربر .

---

(١) انظر مصور طرق القوافل في العصر الوسيط .


افريقية الغربية
طرق القوافل في العصر الوسيط
المرتفعات الجبلية

أما التجارة الداخلية فقد تولاها الافريقيون في قوارب النيجر وعلى ظهور الحمير .

وقد وجدت على طول الطرق آبار يرتوي منها المسافرون ومحطات يناموں فيها ويمتارون منها ، وقد وصف ابن بطوطة في رحلته بعض هذه الطرق .

وتحدث البكري عن شبكة الطرق في ذلك الوقت، وأهمها طريق سجلماسه ـ أوداغست وتستغرق الرحلة فيه احدى وخمسين يوماً ، ومن هناك ينحدر نحو كومبي في خمسة عشر يوماً .

وهناك طرق آخرى من كومبي الى والاتا،ومن أروان في الصحراء الغربية الى سجلماسه،ومن طومبوكتو ـ الى تكازا ومراكش ، ومن طومبوكتو وغاؤ الى « توات » في صحراء الجزائر ثم واحة «واركلا» فتلمسان (بالجزائر)،ومن واركلا الى غدامس في تونس فالقيروان وطرابلس ثم الاسكندرية والقاهرة ، ومن غاؤ الى « تكادا » في صحراء النيجر فمرزوق في ليبيا فطرابلس . أو من تكادا الى أغادس الى تشاد فالسودان العربي فالبحر الأحمر ، ومن كانو بنيجريا الى « بيلما » والتيبستي في صحراء النيجر ثم مرزوق .

النشاط الاقتصادي - البشري :

لقد تطورت التجارة بازدياد النشاط الصناعي وتوثق العلاقات مع البلدان الأجنبية، فوجدت الأسواق التي كانت تقام في أيام معلومة، وقد

قلد الافريقيون في ذلك الأسواق في بلاد المغرب العربي . وكان المردود المالي لهذه الأسواق عظيماً جداً بالنسبة لموارد الدولة ، وان ثروة البلاد الذهبية قد طارت في جميع الآفاق ،وأغرت التجار العرب بالقدوم والاقامة في تلك البلاد، وقد روى الادريسي أن الذهب هناك مبذول بكثرة ويملك منه الكبير والصغير .

وقد روي أن ملك غانه كان يجلس على عرش من الذهب ،ويطعم كل يوم ما يزيد على عشرة آلاف نسمة من قبائله . وذكر الشيء نفسه بالنسبة لملوك مالي [1] . وقد أدى رواج التجارة الى نشوء عدد كبير من المدن التي ورد ذكرها فيما تقدم ، وبالاضافة الى ذلك وصل تعداد كثير من سكان القرى الى خمسة آلاف نسمة في كل قرية [2] ، مما يدلنا على زيادة ملحوظة في عدد السكان، فقد كان في منطقة « جنه » وحدها نحو سبعة آلاف قرية . وقد قام طلاب غاو بتعداد بيوت مدنهم زمن السلطان محمد الحاج فبلغت نحو ثمانية آلاف عدا الأكواخ البسيطة .

وقد بلغت ثروة البلاد الاقتصادية حداً جعل المثل العربي في شمال افريقيا يقول : « ان جرب جملك فعليك بالقطران، وان افتقرت فسافر الى السودان » .

الا أن الحروب الأهلية والغزوات الخارجية التي حلت بالمنطقة

---

(١) انتا ديوب .

(٢) جبريل نيان: مملكة مالي .

منذ القرن السادس عشر ، وكذلك المجاعات والامراض الـوبائيـــة الشديدة وتجارة الرقيق التي جاء بها الاستعمار، كل ذلـك قد فتـــك بالكثير من السكان ، فخسرت البلاد خلال ثلاثة قـرون العامل الأول في قواها المنتجة ، وكان الاستعمار الأوربي أقوى المصائب وادهـــى النوائب التي حلت بافريقيا الغربية منذ أقدم عصور التاريخ .



الحياة الفكرية

مقدمة : انتشار الاسلام في افريقيا الغربية :

لاقى الاسلام [1] نجاحاً عظيماً في افريقيا الغربية ، وان ذلك يدعو الى دراسة الدور الكبير الذى لعبه هذا الدين في تقدم البلاد وتطويرها .

مر بنا في الفصول السابقة أن الاسلام قد وجد طريقه الى غرب افريقيا منذ القرن العاشر ، وأنه قد ساهم في التطور السياسي لغانه ومالي وغاو . وقد اجمع المؤرخون على أن السلم والاقناع كان الطابع العام لانتشار هذا الدين ، لذلك أقبل عليه الافريقيون اقبالاً شديداً ، فلم يشهر المسلمون الاوائل السيف الا في الحالات الدفاعية التي خلقها تكتل الوثنية ، وكان الداعية الاسلامي يعقب الفاتح في هذه الحالة ، ليدخل الطمأنينة الى النفوس وليقرب اليها الاسلام وقد شهد الرحالة

(١) ان هذه المقدمة موجز تاريخي لابد منه قبل البحث في الحياة الفكرية في تلك الاصقاع لأن الحياة الفكرية مرتبطة اشد الارتباط هنالك بالاسلام وتاريخ انتشاره ، وهو مما سنوضحه في الكتاب القادم الذي سيظهر قريباً .

الاوربيون [1] على انتشار الدعوة بالطرق السلمية وقيـــام الداعي بأعمال انسانية ،تنطوي على الرفق في معـاملة الافريقيين، مما ساعد على تقدم الاسلام بسرعة كبيرة . على أن هنالك بعض العوامل التي ساهمت في ذلك نلخصها فيما يلي :

١ – ان قدوم عدد كبير من التجار والفقهاء والدعاة المسلمين قد بعث نشـاطاً عظيماً ، فقد أدى هؤلاء واجبهم في نشر دينهم والتفوا حول الملوك والأمراء وحببوا اليهم الدين الجديد . وقام الفقهاء بمهمة شرح الأحكام ،وقد كان في حاشية السلطان موسى والسلطان سليمان عدد منهم ولهذا نفسر ايمان بعض الملوك في غانه ومالي ، بالدين الحنيف قبل أن يعتنقه سواد الشعب .

٢ – ولما قلد الشعب حكامه في اعتناق الدين الجديد ،شهدت البلاد حماساً عجيباً ، فقد قاد بعض الملوك حملات من الجهاد المقدس ضـــد الوثنية ، قام بها السلطان موسى صاحب مالي والسلطان محمـــد الحاج صاحب غاؤ .

وقد حاول عثمان دان فوديو والحاج عمر وولده احمد خلال القرن التاسع عشر أن يوحدوا البلاد في ظل الاسلام ليجابهوا الاستعمار الاوربي . وقد احتاج الدعاة للملوك ليكونوا سنداً لهم، بينما كان الملوك

---

(١) انتا ديوب: افريقيا قبل الاستعمار. وتوماس ارنولد: الدعوة الى الاسلام ،ترجمة النحراوي وعابدين .

يتعطشون الى تأييد هؤلاء الفقهاء الدعاة في سبيل تثبيت سلطتهم واعطائها الصفة الشرعية ويحتاجون أيضاً الى ثقافتهم وخبراتهم .

٣ ـ وقد وجد الباحثون أن للأسلام صلة وثيقة بنفسية الافريقي ، ذلك أن تقارباً عظيماً قد ربط بين العقلية الافريقية والتقاليد الاسلامية، اذ شعر الافريقي المسلم منذ الوهلة الأولى ، بالأخوة الحقيقية بينه وبين الداعية، وقد قال في ذلك أحد المؤرخين الاوربيين [١] على لسان أحد الشهود : اننا نجد الدعاة المسلمين ينفذون الى قلوب الافريقيين الوثنيين ، ويحولونهم الى الاسلام . وكان من أثر تصرفات الداعية السلمية أن أصبح الزنوج ينظرون الى الاسلام على أنه دين السود ،والى المسيحية على أنها دين الأوربيين البيض ، فهي تدعوه للخلاص ولكن المستعمرين المسيحيين وضعوه في مكان منحط ، بينما كان الاسلام يدعوه الى الثقة بالنفس قائلاً له : « ان بلوغك اسمى الدرجات انما يتوقف عليك». ويشعر الافريقي على الدوام بأن الاسلام لم يقطعه عن ماضيه أو عن مجتمعه ، في حين أن المتنصر يجد نفسه حائراً ضائعاً ، فلا هو قريب من مجتمعه ،ولم يرض الأوربيون له أن ينتسب الى الحضارة الاوربية .

٤ ـ أما العامل الرابع في انتشار الاسلام فانه يعود الى القيم المتداعية التي ظهرت في بقايا الوثنية ، لان المستوى الثقافي والاخلاقي

(١) الدعوة الى الاسلام : توماس ارنولد.

والعقلي للمسلم كان يمثل الذروة بالنسبة لسوية الوثني المنحطة، فلم تصمد الوثنية أمام الاسلام، فانتصر عليها انتصاراً ساحقاً في كثير من الاماكن، ومن ثم فقد كان الوثنيون ينظرون الى المسلمين على انهم قدوة تحتذى [1].

وقد تجسدت أفكار الاسلام بشكل جلي واضح في مملكة غاؤ، فقد كان الملوك في غاؤ يجمعون العلماء والشيوخ ابان الخطوب، ويتداولون معهم في شؤون المملكة وفي الاخطار التي تتعرض لها ثم يتخذ المجتمعون قراراً في التدابير الواجب اتخاذها. وكانت سلطة العلماء زمن السلطان محمد الحاج غير محدودة وآمن الناس بقدسية رجال الدين وبأعمالهم. وقد تطور الامر في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى ان يصل بعض رجال الدين نسبهم بالاسرة الهاشمية [2] وقد لقبوا بالشرفاء. ووصل الاعتقاد ببعض المجتمعات الى أن كثرة الشرفاء في بلد ما تؤدي بأهله الى الجنة. ومنذ ان وطئت أقدام المستعمرين أرض افريقيا، أصبح الاسلام عاملاً موحداً ومسايراً للروح الوطنية، يتضح ذلك من النضال المميت الذي قام به السلطان رباح في تشاد ومحمد الأمين وأحمد الشيخ في السنغال والحاج عمر وولده أحمد في السودان الفرنسي (سابقاً) وساموري توري في غينيا.

---

(١) لاتزال بعض المجتمعات الوثنية تعيش بين المسلمين في غينيا ومالي والسنغال وهي تستجيب شيئاً فشيئاً لدعوة الاسلام.

(٢) وهم يرفعون انسابهم الى ادريس العلوي بن عبد الله الكامل بن الحسن وكان يحكم المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

الأثر الحضاري للاسلام في افريقيا الغربية :

ان الاسلام بالنسبة للوثنية صنو للرقي والحضارة،وهو خطوة بناءة في تقدم المجتمع الافريقي في كثير من نواحيه، فقد ساعد على نمو كثير من المدن التجارية ، وساهم في التطور السياسي للدول الافريقية وأنشأ عدداً كبيراً من المراكز الثقافية وأدخل تطوراً كبيراً في العادات والأخلاق. (١)

وقد اختفت بتغلغل الاسلام أقبح العادات ،مثل أكل اللحم البشري وتقديم القرابين البشرية ووأد الأطفال ، تلك الشرور التي كانت الطابع الأساسي للوثنية.

وكان الناس يعيشون عراة لايغتسلون ، فاصبحوا بعد الاسلام يتأنقون في ملابسهم من أجل الصلاة ، وشرعوا يغتسلون يومياً لأن الشريعة تتطلب منهم الطهارة . وقد اتيحت لهم الفرصة للتآخي في ظل هذا الدين في وحدة افريقية بعد قرون من الحروب الدامية بين القبائل، فشعروا بالأمن والرخاء.

ولقد كان الاسلام أحد الأسباب التي أدت الى ازدهار الصناعة والتجارة،فقد حث على الكسب الحلال ، فأقبل الناس على المهن الشريفة، وكان تحريم الاسلام للرقيق سبباً في صون القوى البشرية الافريقية .

وكما كان الاسلام في الشرق مثاراً لاجتهادات مختلفة في

---

(١) توماس ارنولد وانتا ديوب .

الأحكام ،فقد أتاح للافريقيين أن يصبغوا بعقليتهم بعض النواحي الفقهية والسياسية والاجتماعية في الدين الحنيف ، فنشأ عن ذلك أن طبع الافريقيون مبادىء طريقتي القادرية والتيجانية [1] وتبلورت وجهات نظرهم في الطرق الدينية المعروفة بـ : العمرية والمريدية والشريفية (أو الحماوية) [2].

الثقافة العربية الاسلامية وانتشارها :

للاسلام غزو ثقافي رائع في غرب افريقيا ، يشهد به الرحالة العرب والأوربيون والمؤلفات القليلة التي وصلت من تلك العصور ، ويشهد به أيضاً الواقع الافريقي الذي يحن باستمرار الى العودة الى العلاقات المجدية الوثيقة التي نماها الاسلام بين العرب والافريقيين . وان أبرز المظاهر ، التي أوجدتها الحضارة العربية والدين الاسلامي ،

---

(١) القادرية فرقة نشأت في العراق دخلت الى افريقيا الغربية في القرن الخامس عشر . والقادريون هناك دعاة نشيطون وقد انشأوا كثيراً من المدارس وكان لهم مراكز في والاتاقي موريتانيا وطومبوكتو في مالي وتيمبو في غينيا . اما التيجانية فتنتسب الى احمد بن محمد الجزائري التيجاني « ١٧٣٧ — ١٨١٥ » وقد اتخذت اساليب القادرية في نشر الاسلام الا انها كانت تستعمل العنف ، وقد لقبت بالعمرية لان الحاج عمر زعيم السودان في القرن التاسع عشر ، قد جعل منها وسيلة للوصول الى اهدافه في طرد الفرنسيين من البلاد .

(٢) المريدية : جماعة من التيجانية اسسها احمد حبيب الله بامبا السنغالي ، ناضل ضد الاستعمار فنفاه الفرنسيون . وينتشر اتباعه في كثير من انحاء السنغال . توفي عام ١٩٢٨ . مركزاها : ديوربل وطوبا . اما الشريفية فهي فرقة تدعو الى التحرير والتجديد في مفاهيم الاسلام ، انشأها في تيورو بمالي الشريف حمى الله بن محمد الذي توفي في منفاه بفرنسا عام ١٩٤٢ ، ويتصل نسبه بالامام علي بشجرة نسب تضم سبعة وثلاثين حفيداً .

الحماس المتزايد للعلم والثقافة[1] .

ففي مملكة غانه تمثلت الثقافة العربية في تلك المدارس الاثنتي عشرة التي كانت ملحقة بمساجد القسم العربي من مدينة كومبي [2] ولما ورثت مملكة مالي مخلفات غانه ، كان الاسلام قد شق طريقه الى أرجائها بسرعة كبيرة .

ويعتبر عصر السلطان موسى صاحب مالي وعصر أخيه السلطان سليمان فتحاً مبيناً في هذا الميدان . فقد ارسل السلطان موسى بعثات ثقافية الى مدن المغرب العربي ، لمتابعة دراساتهم . واشتهر في زمنه فقيه مشهور هو « كاتب موسى » الذي تابع تحصيله في فاس . وقد اشترى هذا السلطان أثناء حجه كثيراً من الكتب من القاهرة ومكة ، كما أنشأ في عاصمته عند عودته من الحج عام ١٣٢٥ مدرسة كبيرة لتعليم العربية والقرآن . وشهد ابن بطوطة أن التعليم في تلك المدرسة كان اجبارياً ، اذ كان الطالب يقيد بالحديد حتى يحفظ القرآن [3] . وقد روى العمري والقلقشندي [4] أن السلطان موسى كان يتقن العربية قراءة وكتابة وحديثاً ، وكان أخوه السلطان سليمان مثله وقد عمل هذان على جعل اللغة العربية اللغة الرسمية الى جانب اللغة المحلية . وقد نوه القلقشندي أن الخط السائد في مالي وفي غيرها من الممالك كان الخط الفاسي [5] .

(١) ارنولد وديوب .

(٢) انظر الثقافة العربية في غانه ص ٤٠ .

(٣) نيان : الدراسات الافريقية .

(٤ و ٥) المجلة عدد شباط عام ٩٦١ مقال عبد الرحمن زكي .

ويبدو أن القرن الرابع عشر ، عصر الأوج في مملكة مالي ، قد سجل نهضة علمية راقية ،فقد ذكر السعدي في تاريخه تراجم لكثير من العلماء الفقهاء في المدن المشهورة ، على أن أياً من مؤلفات هـؤلاء لم يصل الى يد الباحثين [1] ،يؤيد ذلك ماذكره المؤرخ الغيني نيان عن العمري من أن الفقية عبد الرحمن التميمي الذي صحب السلطان موسى الى مالي ليعمل في طومبوكتو ، قد وجد في هذه المدينة فقهاء عـلى درجة عظيمة من الثقافة ، مما اضطره الى متابعة تحصيله في فـاس [2]. ويشير ابن بطوطة الى ارتفاع مستوى الثقافة ، عندما وجد عند أحد الأمراء في تكادا (الى الشرق من غاو) نسخة من كتاب المدهش لعبد الرحمن بن علي الجوزي [3]. كما ذكر الدكتور عبد الرحمن زكي [4] أنه كان لأهل مالي رواق في الازهر، عـرف باسـم الرواق التكروري يتخرج منه المتعلمون الافريقيون ليعودوا الى بلادهم رسلاً للثقافة العربية ،ويدل المستوى الثقافي على الرغبة في التعلم التي تتميز بها العقلية الافريقية، على أن هذه الحركة الثقافية الناشطة قد آتت أكلها ناضجة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ابان فترة الأوج في

---

(١) جبريل نيان : دراسات افريقية .

(٢) جبريل نيان : دراسات افريقية.

(٣) رحلة ابن بطوطة .

(٤) المجلة عدد شباط عام ١٩٦١وقد كان العرب يسمون جميع السودانيين من اهل افريقيا الغربية باسم التكرور .

غاؤ ، في ذلك الوقت اشتهر أمر المراكز الثقافية وظهرت مؤلفات كبار العلماء .

المدارس والمراكز الثقافية :

كانت المدارس في افريقيا الغربية تمتاز بظاهرة عامة ، هي ارتباطها الشديد بالدين ، ففي أول الأمر كانت المدارس ملحقة بالمساجد، فالى جانب كل مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد ، وهناك أمكنة أخرى لنوم الطلاب القادمين من بلاد بعيدة ، على أن بعض المساجد كانت مقراً للتعليم ، اذ تعقد في المسجد حلقات لهذه الغاية . وبازدياد قوة الاسلام وظهور المرابطين في القرن العاشر، ألحقت المدارس بالرباط وهو المكان الذي يقيم فيه المرابطون للتعبد. وقد قلد الافريقيون هذا النوع من المدارس ، فأصبح الى جانب كل زاوية من زوايا الفرق المذهبية والدينية ، مدرسة لتعليم الأطفال . على أن القرى الصغيرة التي تخلو من المساجد كان أطفالها يتلقون تعليمهم على يد أحد الدعاة في ساحة صغيرة في الحي [1] . وكانت بعض المدن مشهورة بمساجدها ومدارسها[2] وبكونها بؤرة تشع منها الثقافة العربية نستطيع أن نطلق عليها اسم المراكز الثقافية .

---

(١) بقيت بعض المدارس القديمة على حالها ، فيشاهد الان في افريقيا الغربية مدارس تعقد في الحوانيت « كونا كري » او في الهواء الطلق « في بعض انحاء غينيا » .

(٢) يطلق على المدرسة اسم الكتاب في كثير من مؤلفات الفرنسيين في التعبير التالي : Ecole Coranique

ان الوثائق الافريقية والعربية [1] تتيح لنا فرصة الحصول على معلومات كافية عن المراكز الثقافية التي شعت منها الثقافة العربية ابان العصور الوسطى والحديثة، وهذه المراكز هي المدن التي كثرت فيها المدارس، أو كانت مقراً للدعوة الاسلامية وفي مقدمتها :

كومبي ووالاتا ونيا (موريتانيا) ،طومبوكتو (لا تزال مدرستها قائمة حتى الآن) وجنه وغاؤ (جمهورية مالي). وبوندوكو وكونغ (في ساحل العاج)،الدنكراي، تيمبو ، كانكان ، لابه(غينيا)،الكولاك ، توبه ، سيلا (السنغال) كانو ، سوكوتو (نيجيريا) ومدينة وا Wa (جمهورية غانه) [2] وأغادس (جمهورية النيجر).

وكانت طومبوكتو ، منذ القرن الثاني عشر ، مركزاً ثقافياً كبيراً، فقد كان فيها مسجدان كبيران(جانكوبر وسانكوري)يعتبران جامعتين اسلاميتين تضمان المتشوقين للعلم ، وكانت الدروس فيها تستمر طيلة النهار ، لاتنقطع الا وقت الصلاة .وكان بعض الأساتذة يدرسون في الليل على نور الحطب المشتعل الذي يتبرع به الطلاب . وكان بهذه المدرسة نحو مائة وثمانين مدرسة.وقدذكر ليون الافريقي انطومبوكتو قد استوردت كثيراً من الكتب العربية ، بأسعار خيالية،وكانت مدينة

---

(١) انتاديوب ، ارنولد ، ورو في كتابه :«الاسلام في الغرب ».

(٢) يقوم بالتعليم الان ، في المراكز المتبقية من المنطقة الغربية جزائريون وموريتان ، او افريقيون متعلمون في فاس وتلمسان وتونس والقاهرة . بينما يعمل في مراكز نيجيريا وتشاد وغانه اساتذة من السودان العربي او من الباكستان .

جنه مثالاً مصغراً لطومبو كتو ، فقد عجت فيها وفود الطلاب نظراً لكثرة مدارسها ، وعندما دخلها الاستعماري الفرنسي « أرشينار » وجد بها خمسة عشرة مدرسة وكثيراً من الكتب . وقد عطلت المدارس وسرق المستعمرون الكتب ، وقد اغلقت المدرسة الاخيرة فيها عام ١٩١٣ .
وتعتبر بقية المدن ، المتقدم ذكرها ، أمثلة لطومبو كتو وجنه ، وقد نوه ابن بطوطة بالعلماء والمتفقهين الذين وجدهم في المدن أثناء رحلته في ربوع البلاد .

التعليم ـ المناهج ـ المستوى الفكري :

لقد وجد الافريقيون [١] في الاسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم فأقبلوا عليها اقبال الصدي على الماء . ويتمثل حبهم للعلم في اكرامهم للمعلم ، فهو محترم من الجميع وهم يجزلون له العطاء ، لأن كثيرا من المعلمين كانوا يعملون لوجه الخير والمعرفة ، الا أن العادة قد جرت على أن يتلقى بعض المدرسين المحتاجين جرايات واعانات من تبرعات الأوقاف أو من الطلاب ، وقد تلقى المدرس علي تكاريا ، كما يقول كاتي ، في يوم واحد معونة تقدر بـ ١٧٢٥ صدفة من تلاميذه الذين بلغوا مائة وثلاثة وعشرين .

وكان التعليم في أول أمره محصوراً بالاساتذة العرب القادمين من شمال افريقيا ، وبعد مضي مدة ، تكونت طبقة مثقفة من الافريقيين تولت مهمة التعليم بعد أن تخرجت من المدارس العربية في المغرب ومصر ،

(١) انتا ديوب .

وأغلبية المعلمين الافريقيين كانت من رجال الدين الذين اتقنوا اللغـــة العربية ومارسوا التعليم بها لانها كانت لغة الدين والثقافة والتجـــارة خلال ثمانية قرون . وقد تأثر الافريقيون بالتقاليد الروحية الشديدة ، فكان العرف السائد أن الطفولة يجب أن تتلقى تهذيباً سليماً قبل أن تتسرب اليها العادات القبيحة .وجرت العادة أن يذهب الطفـــل في الخامسة الى المدرسة في قريته، أو في قرية أخرى ،ان لم يتيسر له ذلك في بلدته ، وعندئذ يعيش في عزلة مـادية ومعنـــوية تساهم في تكوين شخصيته وتقوي ثقته بنفسه .

ويبدو من أحد نصوص السعدي أن الافريقيين قد أهملوا التربية الجسدية، فقد ذكر هذا المؤرخ [١] أن كثيراً من العلماء لم يتدربوا على ركوب المطايا ، لذلك سقطوا عنها عندما كان يطاردهم الملك علي في طومبو كتو .

ويتساءل المرء عن المناهج والمواد التي كانت موضـوع الدراسة ؟ يجيب على ذلك الحاضر الافريقي وتعليقات المؤرخين الاوربيين والعرب، ويستفاد من هؤلاء الباحثين أن [٢] أول دروس الأطفال مختارات من القرآن ، تلي ذلك دراسة العلوم الاسلامية المتفرعة عنه كالتفسير والنحو والبلاغة والصرف والفقه والفـــرائض ، وهذه الدراسات

---

(١) انتا ديوب. افريقيا قبل الاستعمار

(٢) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام، نقلا عن دوايت في كتابه:« زنوج افريقيا . »

تغذي المراحل العليا التالية،في طومبوكتو وفاس والقاهرة ،فيما اذا اراد الطالب متابعة تحصيله . وكانت حلقات التدريس التي يتصدرها الاستاذ ندوات تجري فيها المناقشات الجدلية والفقهية ، اذ كان منطق أرسطو والفلسفة اليونانية ومقامات الحريري مدرجة في قائمة مواد المنهاج . وكانت طريقة دراسة النحو تعتمد على الاستنتاج ، اذ يقرأ الطلاب النص الأدبي ويناقشون ،من خلاله ، بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة .

ولقد انتقل حب المغاربة للنحو والصرف الى الافريقيين، لأن كثيراً من كتب النحو قد حملها الاساتذة العرب الى افريقيا الغربية فيما أدخلوه الى تلك الأصقاع . وكان الطلاب يقبلون على الدراسة بكثرة واضحة ، دون مقابل ، مما ساعد على نشوء كثير من المدارس في مختلف الأنحاء .

ويبدو أن علم الفلك قد ازدهر هناك ، لحاجة الناس اليه في السفر الى مكة . وقد ذكر السعدي [1] في الفصل العاشر من تاريخه تراجم سبعة عشر عالماً من طومبوكتو مبيناً الميادين العلمية التي اختص بها كل منهم ،وكانوا من النحاة والمناطقة والفقهاء والأدباء وعلماء اللغة والتفسير والحديث . وقد عدد بعض مؤلفاتهم التي فقدت بسبب سوء الأحوال في طومبوكتو منذ الفتح المراكشي حتى

---

(١) انتا ديوب افريقيا قبل الاستعمار .

الاحتلال الفرنسي [1]. ومن العلماء الذين ذكرهم السعدي أحمد بابا التمبكتي صاحب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» في تراجم المالكية [2]، وقد ذكر في كتابه تراجم لأكثر من مائة شاعر وأديب ومؤرخ وفقيه، وهؤلاء عبروا عن أفكارهم باللغة العربية.

ومن هؤلاء العالم المؤرخ محمد بن أبي بكر الوانكوري وكان استاذاً للمؤرخ السعدي، ومنهم الشاعر محمد بن محمود المتوفى عام ١٥٦٥ وكان فيلسوفاً.

ويتحدث السعدي، عن استاذه الوانكوري فيقول: لقد تعلمت منه الكثير، وأجاز لي كتباً قرأتها عليه، بخط يده، وأهديت اليه بعض المصنفات التي ألفتها بمساعدته. وهذا يدلنا على وجود نوع من الشهادة وعلى نشاط في البحث والتأليف لم يصلنا منه الا القليل. فقد توزعت الكتب بين شمال افريقيا والأندلس، بينما أخذ الفرنسيون ماتبقى منها الى فرنسا ودكار. وفي المعهد الفرنسي I.F.A.N. بعاصمة السنغال يتكدس منذ عام ١٩٠٠ أكثر من ثلاثمائة مخطوط عربي تنتظر الباحثين المختصين. ويسرد السعدي في تاريخه براهين تؤكد وجود مجتمع ثقافي عربي يحاكي

---

(١) راجع ص ٧٤ وما بعدها.

(٢) جاء في اعلام الزركلي أن أحمد بابا هو ابو العباس أحمد بن أحمد التكروري السوداني (١٥٥٦ – ١٦٢٧) مؤرخ ينحدر من اصل صنهاجي كان عالماً بالحديث والفقه. قبض عليه المراكشيون في طومبوكتو وسيق الى فاس ففقد اثناء ذلك نحو ١٦٠٠ مجلد، له ايضا: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، في الفقه والحديث. وهناك عالم آخر بهذا الاسم معاصر له نحو اربعين مصنفاً.

المجتمعات في شمال افريقيا ، من هذا قصة الفقيه عبد الرحمن التميمي الذي مر ذكره [1] . وان الأثرين العظيمين اللذين تركهما السعدي وكاتي [2] يشهدان على دقة في البحث التاريخي وأمانة في سرد الحوادث ، فقدذكرا في كتابيهما المصادر ورجال السند ، واحتفظا بالنصوص المنقولة منسوبة الى أصحابها .

وقد تحدث كاتي في مقدمة كتابه «التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس » ، عما يمكن ان يسمى النقدالعلمي في البحث التاريخي فقال : [3]

لما رأيت اهمال الناس للتاريخ ،على ما له من فائدة جليلة في معرفة البلاد وتسقط اخبار ابطالها ،التمست من الله تعالى ،جلت قدرته ،ان يساعدني على كتابة هذا التاريخ الذي يبحث في سلاطين السودان .

من هذا النص نرى ان المؤلف الافريقي محموداً كاتي قد ادرك اهمية التاريخ في حياة الامة وكان الى جانب علمه بالتاريخ عالماً بالخطوط والكتابات .

أما عبد الرحمن السعدي الامام والقاضي فقد اعتمدفي تاريخه على تمحيص الاخبار وتنظيم السرد التاريخي. على ان كتابي كاتي والسعدي لم يخلوا من بعض المبالغات السائدة في ذلك العصر .

---

(١) راجع ص ١٤٠ .

(٢) انظر ترجمة كاتي في ص ٣٨ والسعدي في ص ٤٦ .

(٣) الشيخ انتا ديوب

وان كثرة المؤلفات تنقلنا الى موضوع متمم ألا وهو المكتبات. فلقد عرف الافريقيون الورق وفن الخطوط، اذ كان عند الملك داود، صاحب غاؤ، مكتبة ضخمة ونساخ ينقلون له المخطوطات كما يقول السعدي، وقد بلغ من حب هذا الملك للكتب، ان اشترى قاموساً بمبلغ ثمانين مثقالا من الذهب [1].

ومن جهة اخرى عرف الافريقيون الطب التجريبي وكان عندهم بعض المختصين مثل «ابراهيم السوسي» في كباره، ميناء طومبوكتو، على النيجر، وقد شفى هذا الطبيب احد اخوة المؤلف السعدي من مرض لازم عينه. وعرف الافريقيون خياطة الجروح وتضميدها وقطع النزيف بالزيت المغلي، ومعالجة السموم بخلاصة بعض النباتات. وقد ذكر ابن بطوطة انه عولج خلال رحلته الى مالي، من وعكة ألمت به.

ويتقدم بنا الزمن الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لنرى اي تطور قد دخل على الثقافة العربية في تلك البلاد، يجيبنا على ذلك الرحالة الاوربيون الذين زاروا البلاد خلال هذين القرنين [2].

فلقد ذكر الرحالة الانكليزي فرانسيس مور انه وجد عام ١٧٣١

---

(١) الشيخ انتا ديوب. والمثقال الذهبي يساوي نحو ستة غرامات، وكان من النقد الرائج في تلك البقعة «راجع الحياة الاقتصادية»

(٢) نصوص الرحالة الاوربيين منقولة بتصرف عن الدعوة الى الاسلام لتوماس ارنولد، ترجمة: عابدين والنحراوي.

معظم اهالي كامبيا البريطانية [1] يتكلمون العربية لأنهم - كما قال - يتعلمونها في مدارسهم ، ولأن القرآن وهو شريعتهم مكتوب بهذه اللغة ، والمامهم ، على العموم ، بالعربية اكثر من المام اهل اوربا باللاتينيـة ، وأكثرهم يتكلم العربية الى جانب اللغة الاصلية البدائية .

كما وجد منكو بارك Mungo Park عدداً كبيراً من المدارس التي تعلم العربية والقرآن في اوائل القرن التاسع عشر .[2]

وفي السيراليون وجد الانكليز المستعمرون جماعات من القبائل تتقن العربية وتنشيء المدارس لتعليم القرآن ، فقد جاء في تقرير عن تلك البلاد رفع الى مجلس العموم عام ١٨٠٤ مانصه : منذ مدة لاتزيد على سبعين عاماً استقرت جماعات صغيرة من المسلمين شمال السيراليون (المقصود بهذه الجماعات قبائل المالانكه) وكما هي العادة عند أتباع هذا الدين ، فتح المعلمون المسلمون المدارس التي تدرس العربية والقرآن والشريعة الاسلامية ، وقد جرى هؤلاء على عادة المسلمين في عدم بيع ابناء دينهم بيع الرقيق . وقد ساروا في نظام حياتهم وفق الشريعة وجلبوا الى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة .[3]

ويقول توماس ارنولد في هذا الصدد : وقد بلغت اللغة العربية ، وهي

---

(١) كامبيا هي اللسان البريطاني في السنغال ، وهي مستعمرة صغيرة بها أكثرية مسلمة

(٢) وصل بارك الى حوض النيجر .

(٣) لقد اضطر المستعمرون للاعتراف بتأثير الحضارة العربية في افريقيـا في مناسبات كثيرة ، منها أنهم وجدوا في المسلمين الافريقيين خبرة وثقافة فوظفوهم في الاعمال الحكومية مكرهين . راجع في ذلك الدعوة للاسلام لتوماس أرنولد .

لغة الديانة الاسلامية ، حداً يفوق الوصف ، بل انها اصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة السوداء ، وهي الى ذلك لغةالشريعة المكتوبة وهذا تقدم هائل في الحضارة الافريقية .

والى جانب ذلك ظهر عدد كبير من المؤلفين الافريقيين في القرن التاسع عشر ،وقد عبروا عن افكارهم باللغة العربية . منهم ذلك المؤلف المجهول [١] الذي كتب بالعربية حياة المناضل « احمد ساموري توري» والعالم السنغالي «كليما دياكيتا» ، الذي كان في حاشية ملك كايور عام ١٨٥٨ .

وتعد مؤلفات احمد بامباه والحاج مالك سي » و« وموسى كالم »[٢] في اوائل القرن العشرين استمراراً للحركة الثقافية في القرون السابقة ،فقد انشأ المريدون مدارس تعلم بالعربية الى جانب العلوم التقليدية. وقد بذل الاستعمار جهوداً جبارة لمقاومة الثقافة العربية التي تمكنت من نفوس الافريقيين ،بل كان من اصالة هذه الثقافة ان عمد المسلمون الى انشاء المدارس في المناطق التي تسيطر عليها الوثنية كما حدث في ساحل العاج ونيجيريا .

وفيما يلي نسوق مثالاً على الاسلوب العربي المتين وهو يعطي صورة

---

(١) عن توماس أرنولد .

(٢) هؤلاء هم الرعيل الأخير الذي كتب بالعربية. ومنذ الحرب العالمية الأولى والافريقيون يعبرون عن افكارهم في كثير من الاحيان باللغة الفرنسية ،التي فرضها الاستعمار .

حية عن الادب العربي في افريقيا الغربية[1]. فقد كتب السلطان أحمد بن الحاج عمر (١٨٦٥-١٨٩٣) رسالة الى احد أصدقائه يعزيه فيها بوفاة ولده:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل حزبه ، ورضي عن شيخنا أحمد التيجاني وخليفته العثماني ، سقانا الله من بحره بأعظم الأواني .

وبعد هذه الديباجة يأتي خاتم السلطان الرسمي وفيه :

عبد ربه الحق البر ، أمير المؤمنين أحمد بن عمر بن سعيد أسعدهم الله في الدارين .

الرسالة : منا الى صحبنا وخاصة الخاصة من اصحابنا أبي بكر بن الحاج محمود . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . موجبه أنا قد سمعنا بوفاة ثمرة فؤادك ومهجة قلبك الكبير . فاسترجعنا وفزعنا الى الله تعالى ودعوناه باسمه القريب المجيب أن يتلقاه بفضله ورحمته وأن يغفر له ويرحمه ويصفح عنه ويستره وان يعوضك خيراً منه ويسد لك ثلمته . فاذا أتاك كتابنا هذا فاعلم بأن لله ما أخذ وله ما اعطى ، ولكل منا أجل مسمى . فأصبر واحتسب ، فان المال والاولاد في ايدينا ودائع الله ، فلا ينبغي لنا الجزع ان استرجع المودع ودائعه . وقد قيل ان لله ملكاً ينادي كل يوم : لدوا للموت وابنوا للخراب . فاذا فهمت ذلك فاعلم بان الرجل انما يبتلى على حسب دينه فمن كان دينه اقوى ، كان بلاؤه اشد ، وان

---

(١) النص مصور في كتاب «ابطال السودان» « Pioneers de Soudan » للضابط J. Min. مينيو ، وهو مكتوب بخط فاس .

من كان نعم الله عليه اكثر، كانت البلايا عليه اكثر . فلا نعمة أعظم من الولد بعد النفس ولا بلية أعظم من الابتلاء بموته . فاحتسب الله ولاتجزع لحادثة الليالي فما لحادثات الدنيا بقاء ، والسلام .

ويمكن القول : ان فرنسا وبريطانيا ، رائدتي الاستعمار في افريقيا الغربية ، لم تستطيعا تحويل أنظار الافريقيين عن فاس وتونس والقاهرة ومكة . فكان أن أقرت الجمعية الوطنية السنغالية اللغة العربية لغة اجبارية في مناهج الدراسة . وقبل ذلك بدأت غينيا المستقلة تدريس اللغة العربية منذ عام ١٩٦٠ ، بينما اعتبرت اللغة العربية لغة رسمية في جمهورية موريتانيا . وان حركة التحرر في غرب افريقيا تدعو الافريقي اليوم لأن يصبو الى القيم الافريقية السامية ، مقترنا بما قدمه الاسلام ، ليستطيع أن يفكر بفضله وينفخ بواسطته شعلة الحرية التي تتمثل في احياء التراث الناهض للحضارة الافريقية الاسلامية .



فن العمارة

ان المتأمل في فن العمارة السوداني (افريقيا الغربية) يجد فيه الخشونة والبساطة اللتين تعبران عن الروح الافريقيـة المثيرة للانتباه الدائم . ويعود هذا الفن الى الوسط الذي عاش فيه الافريقيون.

على أن الأبنية التي أقامها ملوك غانه ومالي وغاؤ قد طالتها يد التخريب والحروب [١] كما أنها لم تتماسك أمام توالي العصور ، ذلك لأن مادة البناء كانت من الطين أو الخشب .وينفرد فن العمارة في افريقيا الغربية بتأثير خاص قادم من شمال افريقيا . [٢]

يقول الادريسي في فن العمارة في غانه : ان ملك غانه كان يسكن في قصر محصن من الحجارة ،له نوافذ زجاجية وبداخله نقوش منحوتة ومزينة بألوان مختلفة. أما بيوت النبلاء فهي من الحجارة وخشب الأكاسيا الثمين. وكانت مساكن الشعب من اللبنى المجفف (الطين المشوي)وهي مغطاة بسقوف من القش . [٣]

وقد مر بنا (راجع الحضارة الغانيه) أن ملوك المرحلة الأخيرة

---

(١) نيان : دراسات افريقية العدد الاول لعام ١٩٦٠ .

(٢و٣) اتنا ديوب.

من حياة غانه وكذلك النبلاء ، كانوا يستقدمون البنائين من المغرب ليقيموا لهم قصوراً وبيوتاً تشابه تلك التي كان يبنيها المغاربة في الحي العربي من كومبي ، وبهذا نستطيع أن نفسر وجود النوافذ الزجاجية في بقعة لم يكن فيها الزجاج معروفاً .

وقد بدأت الحفريات [1] في المنطقة الواقعة على حدود موريتانيا مع جمهورية مالي منذ عام ١٩١٤ للتنقيب عن آثار غانه ، وكانت النتائج التي حصل عليها علماء المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء I.F.A.N. تطابق تلك التي ذكرها المؤرخون العرب . فقد وجدت آثار من بقايا القصور والمنازل ، وقد بلغ سمك الجدار في تلك الأطلال نحو ٣٠ سم ، كما عثر على بعض الأدوات المعدنية . وخرائب مشابهة في كل من : والاتا ، نيما وأوداغست (في جمهورية موريتانيا) .

وليس من السهل ان تتقصى الاسلوب الهندسي في البناء في ذلك العصر، الا اذا درسنا الآثار العمرانية القليلة في كل من طومبو كتو وجنه وغاؤ وموبتي (في جمهورية مالي) .

وان الروايات التي ذكرها المؤرخون عن الآثار العمرانية الكثيرة التي تركتها مملكة مالي تحدو بالمؤرخين وعلماء الآثار الى أن يبذلوا المزيد من الجهد للكشف عن ناحية هامة من حضارة مالي : فقد ذكر المؤرخ جبريل نيان [2]، عن احدى اقاصيص المالانكة الشعبية ،أن الملك موسى

---

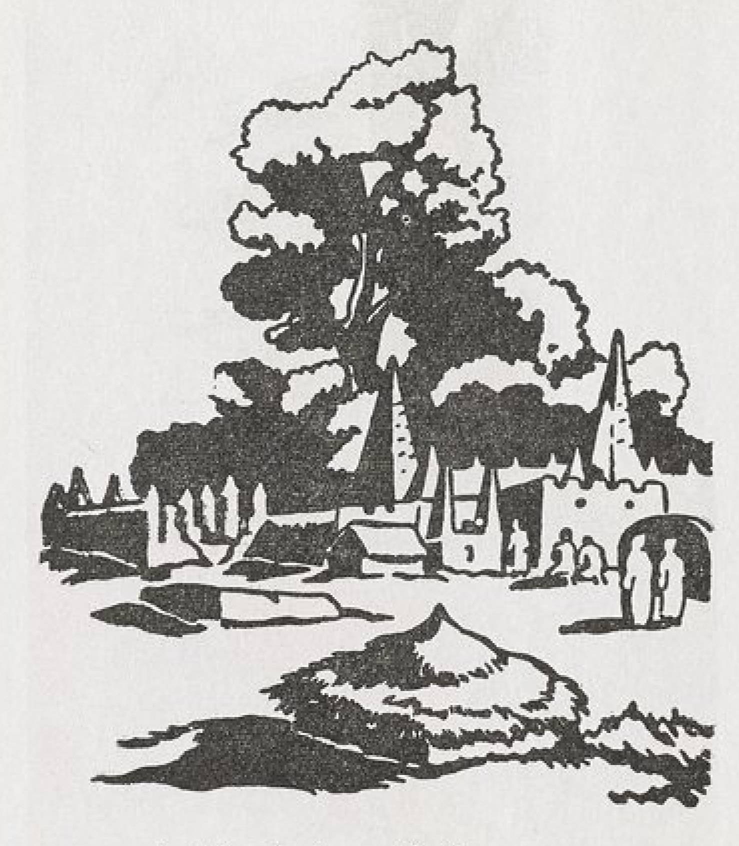
(١) راجع ص ٣٣ .
(٢) نيان : دراسات افريقية .



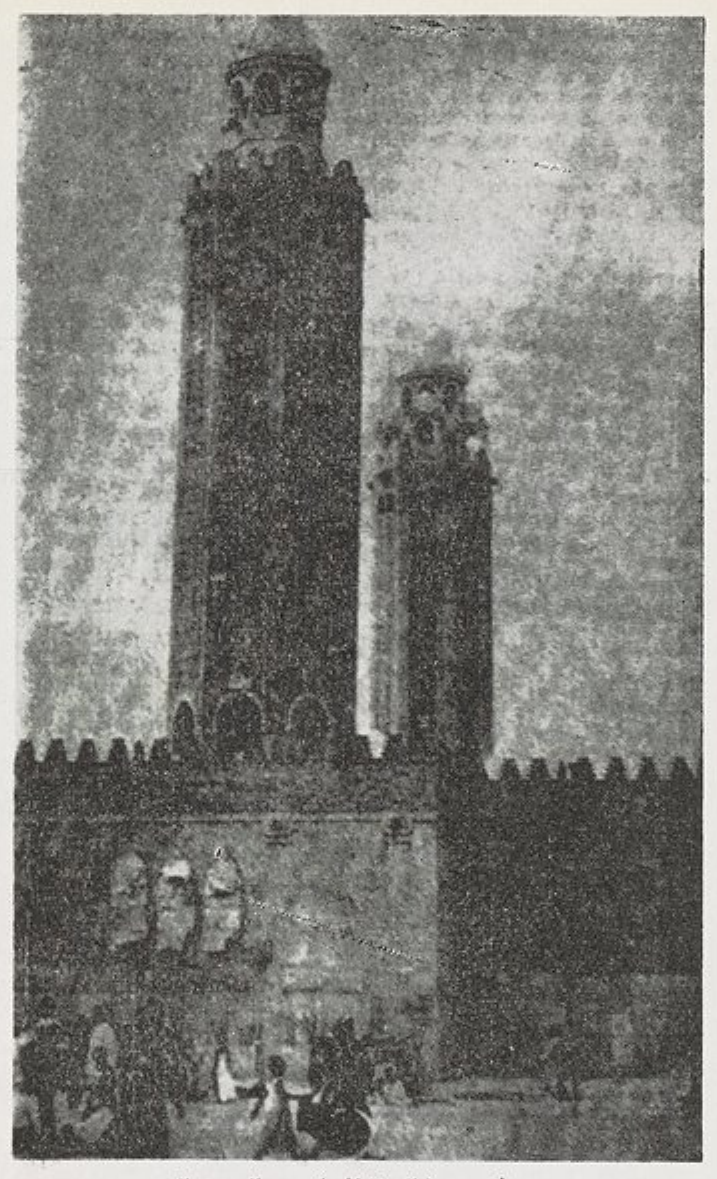
مسجد الحاج عمر في مدينة الدنكراي (غينيا) منتصف القرن التاسع عشر



مسجد مدينة جنة من القرن الرابع عشر (مالي)



مسجد مدينة كونغ (ساحل العاج)



مسجد طوبه (السنغال) من القرن العشرين

قد بنى عدداً من المدن بعد عودته من الحج في الموطن الأول لشعب مالي ، باعالي النيجر ، غير أن تلك المدن التي اوردت الرواية أسماءها لم تبق منها الآن اية مدينة .

وكان تقدم الاسلام في القرن الثالث عشر قد دعا السلاطين الى العناية ببناء المساجد فقد روى المؤرخ السابق [1] عن التاريخ الفتاش أن السلطان موسى صاحب مالي قد أنشأ ، وهو في طريقه للحج ، في كل مدينة مر بها يوم الجمعة ، مسجداً . كما اشرف المهندس ابراهيم الساحلي ، اثناء العودة من مكة ، على بناء مسجد جانكوبر في طومبوكتو وآخر في غاؤ . وقد أشرف ايضاً على بناء مسجد آخر في العاصمة نياني ، وقصر به قاعة كبيرة لمجلس السلطان ، وقد وصف ابن بطوطة تلك القاعة عند زيارته للعاصمة عام ١٣٥٣ .

وقد تتبع السلطان سليمان (١٣٣٦-١٣٥٩) خطا اخيه موسى في عنايته بالعمران ، وتورد الرواية في الماندينغ [2] أن كثيراً من مباني مدينة كانكابا (جنوب غرب باماكو) قد تركها هذا السلطان عندما كان حاكماً عليها ، ثم عندما أصبح ملكاً لمالي .(٣)

وهناك مسجد آخر في طومبوكتو ، يدعى مسجد سانكوري ،

(١ و ٢) نيان : دراسات افريقية .

(٣) لم يكتشف من قصور السلاطين الا بعض الاطلال التي تعين على معرفة الشكل العام .

صممه وبنى قسماً منه المعماري الافريقي محمد فادي في القرن الخامس عشر ، ثم انفق على اتمام بنائه قضاة طومبوكتو والملك داود صاحب غاؤ في القرن السادس عشر .

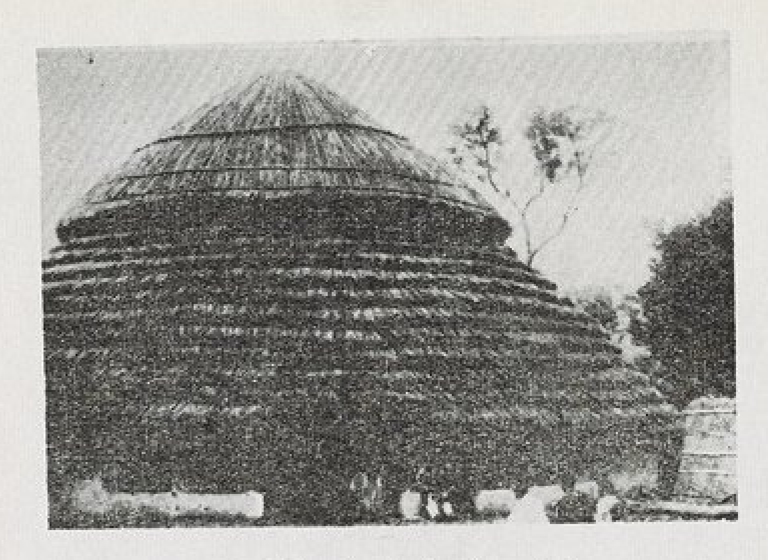
أما مسجد جنه فهو من عمل المهندس ادريس المراكشي (القرن الرابع عشر) ويعتبر مثلاً عظيماً على تمازج الفن العربي الافريقي.

وان دراسة الآثار العمرانية في جنه وطومبوكتو تكشف لنا اسلوب البناء ، الذي يعود في اصله الى الهندسة المعمارية في المغرب ، حملها الى البلاد مهندسون عرب أو افريقيون درسوا فن العمارة وتمرسوا عليه في فاس ومراكش .

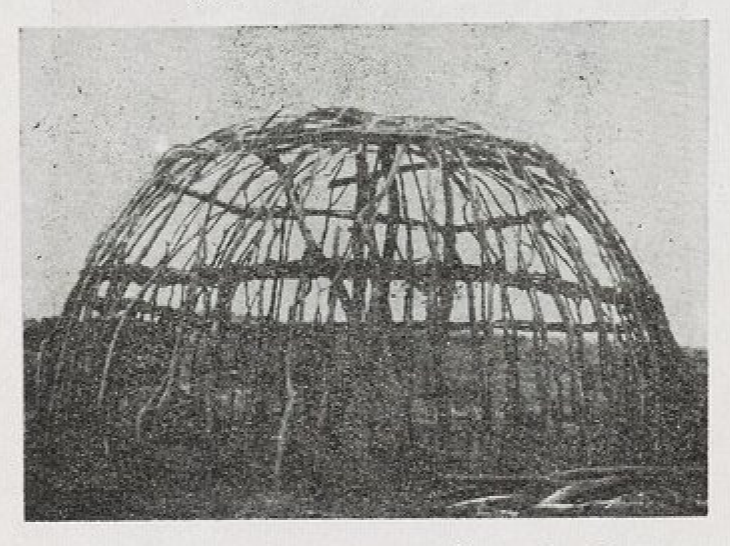
ويعتبر المؤرخون القرن الرابع عشر مولد الاسلوب السوداني في العمارة ، ويقوم هذا الاسلوب على البساطة والسهولة : فقد كان منظر المسجد أشبه بقلعة يعلوها برج ، فقد ارتفعت الجدران عن سقف المسجد واخذت شكل سور مسنن ، بينما غاصت الاعمدة بانتظام وتناظر في الجدران ، لتكون سندا لسقف المسجد . على أن القباب قد اختفت وحل محلها السقف الخشبي (مسجد جنه) .

أما المآذن فقد اصبحت هرمية تعلوها زقرة صغيرة يقف فيها المؤذن (مسجد طومبوكتو) ، بينما احتفظ مسجد طوبه [1]

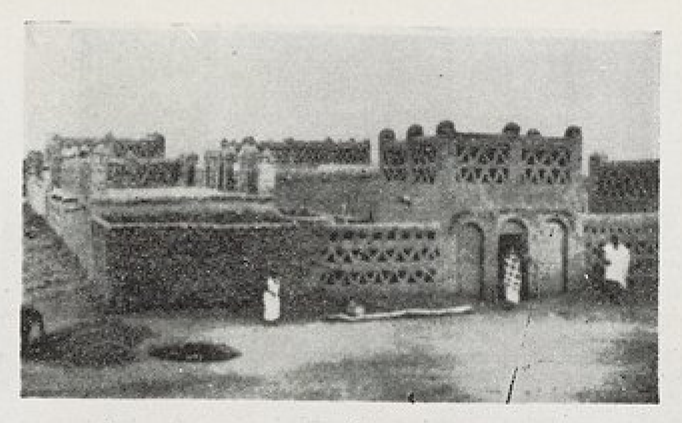
(١) طوبه قرية الى الشمال الشرقي من دكار وهي مركز كبير لفرقة المريدية ومسقط رأس زعيمها أحمد حبيب الله بامبا ، وقد بنى المريدون مسجدهم في اوائل القرن العشرين على طراز مساجد فاس، والمسجد كعبة لهذه الطائفة يزورونه في اوقات معلومة . انظر صورة المسجد المرفقة .



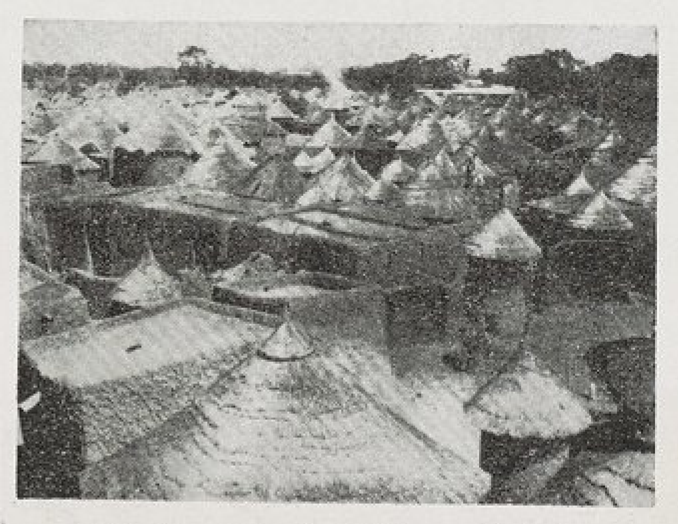
دار احد الزعماء في مامو (غينيا)



هيكل كوخ لأحد الرعاة في ريف السنغال



نموذج من الابنية الحديثة في موبتي (مالي)



نموذجان من الابنية في سيكاسو (مالي)



نماذج من الاكواخ في سفح جبل نيمبا في غينيا



واجهة قصر الحاج عمر في بانديا كارا القرن التاسع عشر (مالي)

بالاسلوب المغربي في مئذنته المضلعة العالية . وقد قصرت المآذن بعد ذلك فأصبحت ترتفع قليلا عن سطح المسجد (مسجد كوناكري عاصمة غينيا)أو انها زالت من البناء (مسجد الدنكراي في غينيا العليا) .
وقد قلت النقوش في المساجد ، واستعيض عنها بخطوط هندسية (تأثير عربي عام) وبآيات قرآنية بخط ناس [1] ، غير أن المحاريب قد بقيت على النمط المغربي .

ويكون الشكل العام للمسجد مستطيلا او مربعا (وينطبق هذا الشكل على القصور) . الا أن بعض المساجد قد بنيت بسرعة على شكل يشبه الكوخ ، من ذلك مسجد الحاج عمر في الدنكراي (الذي سبق ذكره) وهو ذو شكل دائري يرتفع جداره الى مايزيد عن المتر ، أما السقف فهو عبارة عن قبة من الطين .

أما قبور السلاطين والنبلاء فهي مبنية باللبن المجفف على شكل نصف دائرة (طومبوكتو وجنه) أو على شكل هرم مدرج (قبر السلطان محمد الحاج في غاؤ) .

ومن الجدير بالذكر أن نفرق بين مادة البناء في القصور وفي بعض المساجد ، ومادة البناء في البيوت والاكواخ . اذ لم تكن الحجارة أو اللبن المجفف أو الطين المشوي بمتناول الجميع ، والقباب الطينية المخروطة كانت الطابع العام لبناء الاكواخ المستديرة . وتستند هذه القباب على اعمدة من الخشب ، وقد أعطى هذا المظهر لابنية السودان

١ انتاديوب .

خشونة مثيرة [1] . ويبنى الكوخ عادة على تلة صغيرة تجنباً لمياه فصل الامطار ، وبعض الاكواخ مزينة في الداخل والخارج . والاكواخ متلاصقة ، تفصل بينها ممرات ضيقة وساحات صغيرة للاستراحة والرقص . وعلى مسافة قصيرة من اكواخ القرية ساحة عامة واسعة للعبادة [2] .

ولا يزال الطراز الحالي لبناء بيوت القرى في افريقيا الغربية لم يدخل عليه اي تطور منذ العصر الوسيط .

يقول ارنولد تعليقاً على الفن المعماري في افريقيا الغربية : ان القادم الى افريقيا من البلاد الاسلامية يشعر بالتفاوت العجيب ، بين الآثار العمرانية للاسلام في مصر والمغرب وبين ما خلفه الاسلام في غرب افريقيا ، فليس هناك حتى الآن اثر فني ضخم .

وفي افريقيا الغربية اليوم ، نموذج أوربي للبناء يأخذ بعين الاعتبار طبيعة المناخ وهو يسود في المدن الكبرى.

(١) جبريل نيان : دراسات افريقية .

(٢) رشار مولار : افريقيا الغربية الفرنسية .

مصادر البحث الاساسية (١)

المصادر الاجنبية

١ – الكتب الفرنسية :

1 - L'Afrique Occidentale Francaise : Richard Mollard Paris 1952

2 - L'Afrique Noir : J. Suret - Canale Paris 1958

3 - Grands Empires Africains du Moyen Age :

1 - Ghana : Djibril Nian - CONAKRY 1959

2 - L'Empire de Mali » » » 1960

4 - L'Afrique et l'Islam : J. Montézère Dakar 1939

5 - L'Histoire de l'A. O. F. : Jaunet et Barry Paris 1949

6 - L'Afrique Noire pré-coloniale : Cheikh Anta Diop Paris 1952

7 - Les Civilisations Africaines : Denise Paulme , Que sais-je 606

8 - Les Religions de l'Afrique Noir : H. Deschamps : » » » 632

9 - L'Histoire de l'Afrique des origines à 1948 :
A. Julien » » » 4

10 - L'Islam en Occident : J. P. Roux Paris 1959

11 - Histoire de l'Afrique Occidentale :
Niane et Canale Conakry 1960

---

١ هناك مصادر اخرى ثانوية يلاحظها القارىء في حواشي الكتاب .

٢ ـ المجلات الفرنسية :

1 - *Notes Africaines Dakar Juillet 1959*
2 - » » » *Avril 1959*
3 - *Revue de l'A.O.F. Magasine Mars 1959*
4 - *Recherches Africaine (Nouvelle Serie) Jan.-Mars 1961*
5 - *Presence Africaine : Revue culturelle du monde noir Jan. 1960*

المصادر العربية

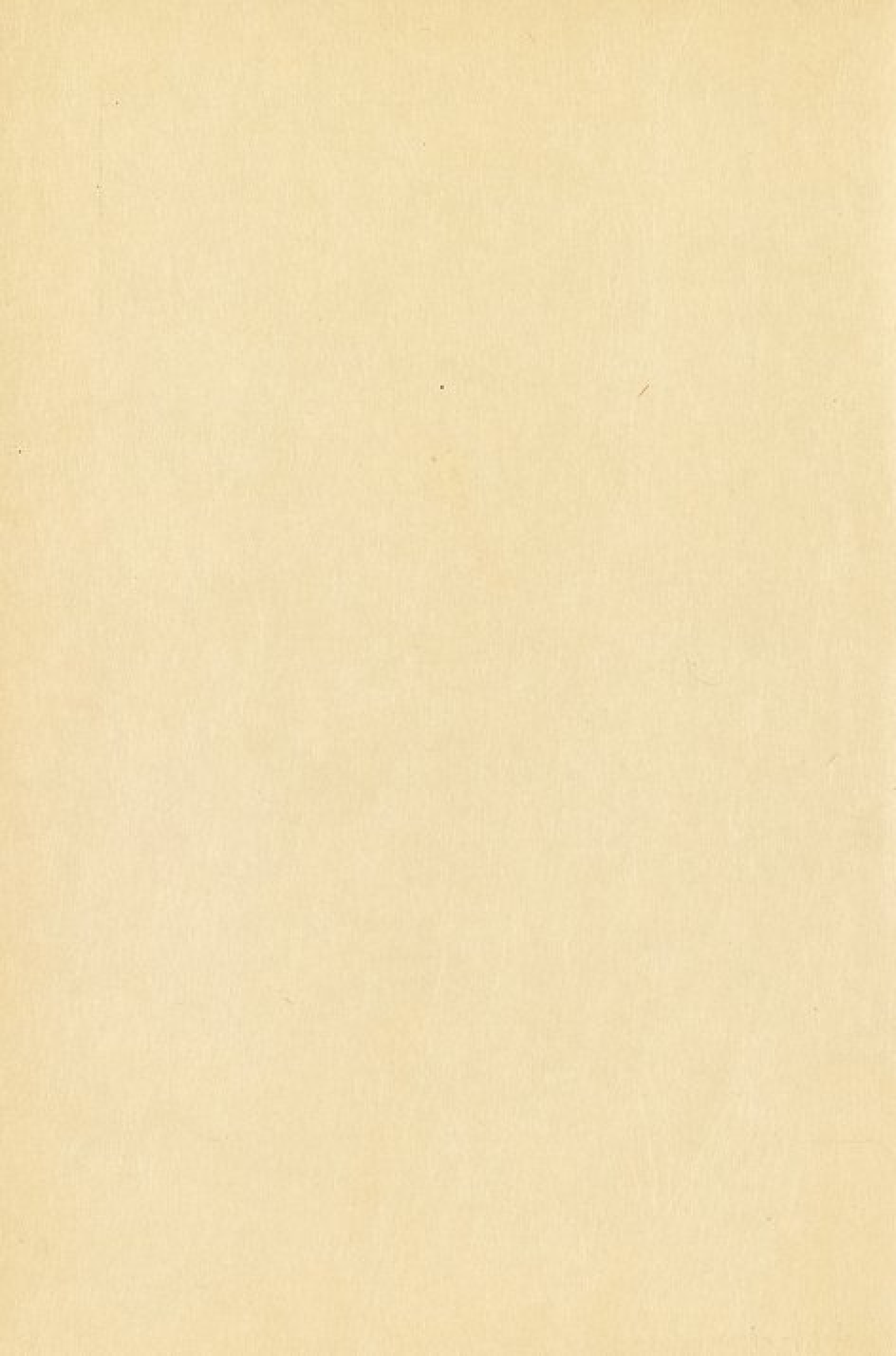
١ ـ محمد يوسف مقلد : موريتانيا الحديثة ، بيروت ١٩٦٠

٢ ـ الدعوة الى الاسلام : توماس ارنولد ،
ترجمة النحراوي وعابدين ـ القاهرة .

٣ ـ المجلة ـ الاعداد : ٤٦ تشرين الاول عام ١٩٦٠
و ٤٧ تشرين الثاني ١٩٦٠
و ٥٠ شباط ١٩٦١

٤ ـ مشاهدات .





من منشورات مكتبة أطلس بدمشق

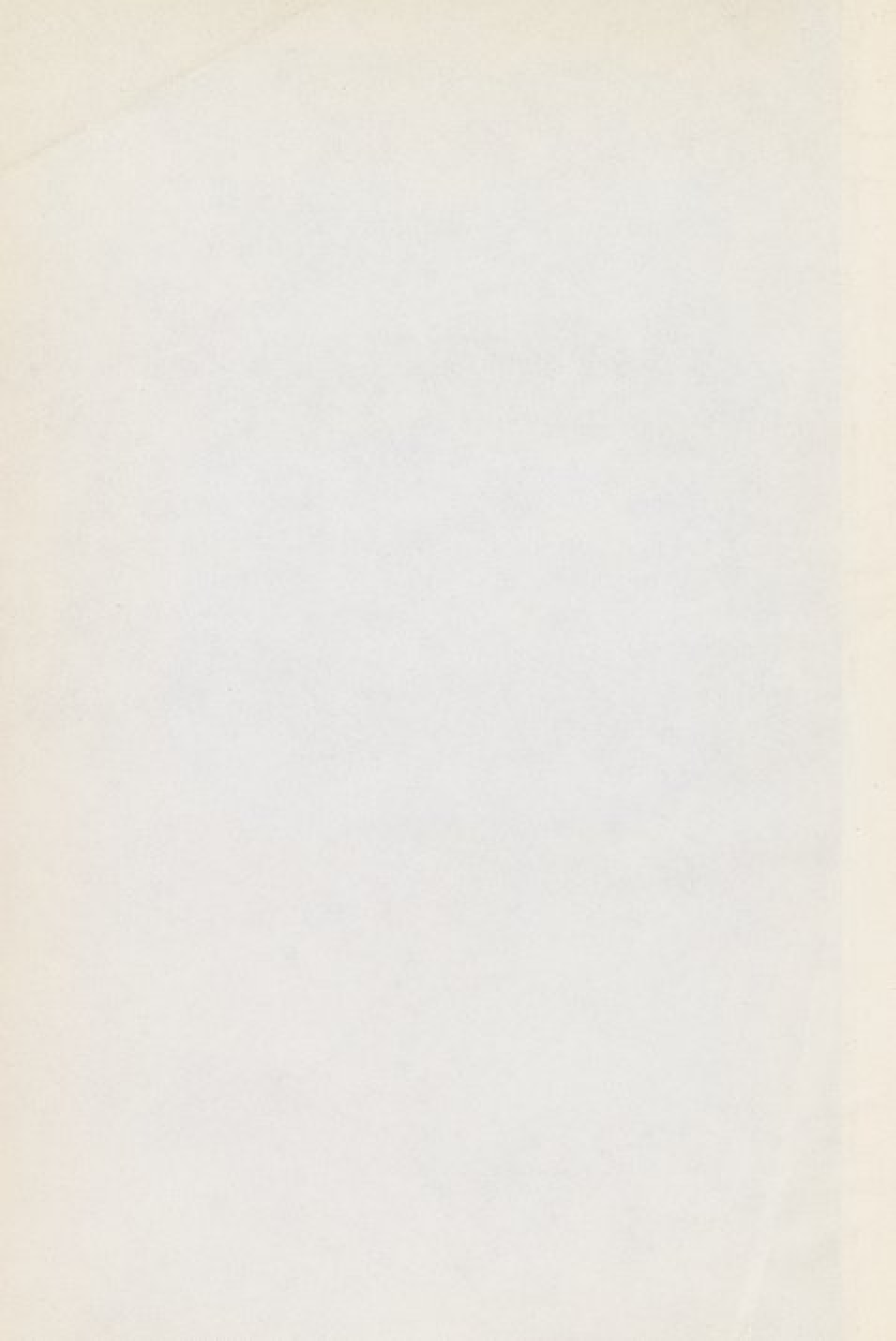
اسم الكتاب	تأليف	ترجمة
نفط وسياسة واقتصاد في الشرق الاوسط	ارنيست تياك	الدكتور هشام متولي
الدار الكبيرة	محمد ديب	سامي الدروبي
التسهيل في علم النفس	معروف زريق ونقولا بنوت	
الحريق	محمد ديب	سامي الدروبي
اساطير مكسيكية	الدكتور انور حاتم	
النول	محمد ديب	سامي الدروبي
قضايا الفن	عفيف بهنسي	
صيف افريقي	محمد ديب	جورج سالم
الرسم واللون	محي الدين طالو	
توباز	مارسيل بانيول	الدكتور ابراهيم كيلاني
فن الرسم الاميركي	جيمس فلاكسنر	زهير سمهوري
تاريخ الاشتراكية الاوروبية	ايلي هاليفي	الدكتور جمال الاتاسي
الصواريخ والاقمار الصناعية	المهندس وجيه السمان	
الالكترون وكيف نفهمه	جون لويلن	احمد عزت طه عصام احمد طه

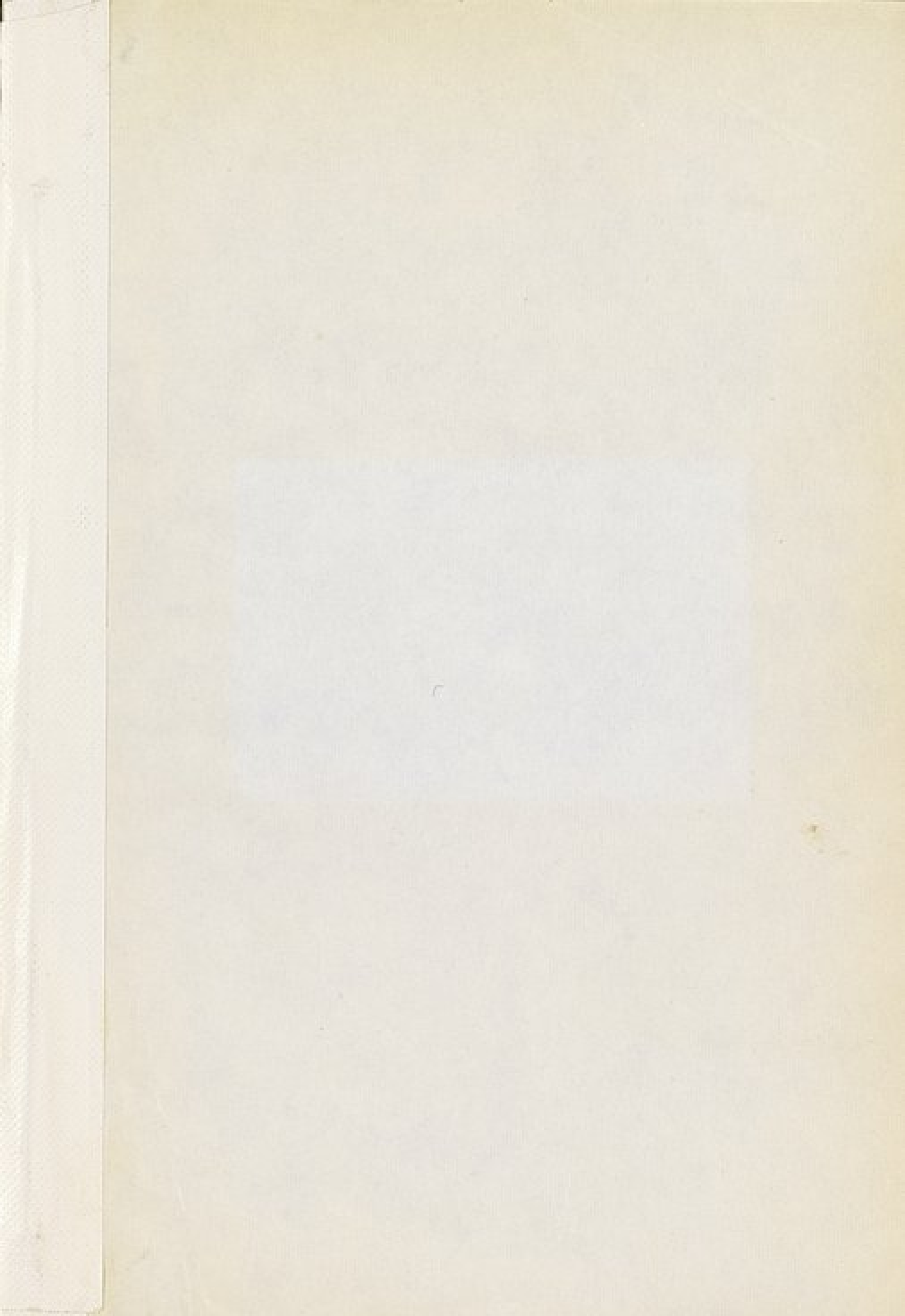
نشر وتوزيع

مكتبة اطلس

دمشق

مطبعة الوحدة العربية - دمشق





LIBRARY

OF

PRINCETON UNIVERSITY


Princeton University Library
32101 074488055